

إقبال الشاعر الشاعر

بقلم

الدكتور نجيب الكيلاني

فاز هذا البحث بجائزة وزارة التربية والتعليم
في مسابقة عام ١٩٥٧ (قسم التراجم والسير)

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إقبال
الشاعر المشاعر

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

مكتبة الصفاة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ بربشوان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أردت أن أسطر هذه الصفحات الموجزة عن (الدكتور محمد اقبال) ، أول من دعا الى تكوين دولة باكستان ؛ لأن فلسفته وشعره ونمط حياته ، وقصة كفاحه ؛ جديرة بأن يقرأها شبابنا ، وخاصة في هذه الفترة الدقيقة ، التي تجتازها بلادنا الحبيبة !..

ولقد توخيت السهولة والاستطراد التوضيحي ؛ فقد قصدت أن يكثر عدد قراء (اقبال) في العالم العربي ، وأن يستطيع ذوو الثقافات أن يلموا بسيرة هذا الرجل العظيم !..

وقد يجد القارئ شيئاً - ليس بالقليل - من النمامة في

الشعر الذي استشهدنا به ، لكن لو أدرك القارئ أن الترجمة
من الشعر الى الشعر أمر ليس ميسوراً سهلاً ، فيقدر من غير
شك هذه الظروف !..

هذا ...

وأرجو أن تكون هذه السطور زادا لشبابنا المكافح في
معركته الدامية ضد قوى الاستعمار !..

لقد كان (اقبال) أحد اولئك القلائد ، الذين بعثوا النور
في سماء الشرق من امثال (الأفغاني) و (محمد بن عبد الوهاب)
وغيرهما ، فرحم الله (اقبالاً) !..

بين البرهمية والإسلام

(الهند) ... عام ١٨٧٣ م

لقد لوّث جماها ، وشاب جلالها ، وجود الاستعمار الغربي الذي لا يقدر على حرية ، ولا يبقى على كرامة ، لأن أجواء الحرية والكرامة لا تعطى الفرصة له كي يتنفس ويعيش ، ومما عدوان لدودان للغاصبين ، فلن يستطيع الانجليز أن يسودوا ، إلا حيث تُهدر كرامة الأحرار وتُداس عزتهم ...

وبالأمس ثارت الهند الأبية - أو الدرّة العصماء - على تاج الامبراطورية التي أرغموها أن ترتبط به ، لكن قدّر لهذه الثورة الاسلامية ، التي قام بها الجيش الهندي ، أن تقهرها قوى الاستبداد الفاشم ، فلم تصل إلى غايتها ، وما أكثر الدماء التي أريقت ، والأرواح التي أزهقت ظلماً وعدواناً ...

ومضى على هذه الثورة ما يقرب من عشرين عاماً... لكن ذكرها كانت عالقة بالأذهان وحوادثها الحمراء ما فتئت تجري على السنة الأجيال وتراود خيال الفتية الناشئة . والشعوب إذا أثقل كاهلها الألم ، وأنهكها الطغيان ، تحلم بماضيها ، وتجتر تاريخها العاطر ، فتشعر بشيء من الراحة ، وبقليل من العزاء ، لعل في ذلك ما يدفعها إلى الأمام ويبت بين حناياها بذور الأمل والرجاء ...

في هذه الفترة الحرجة المضطربة من تاريخ (الهند) عام ١٨٧٣ م ، بزغ في سماء الخلود والمجد نجم ساطع لألاء ، أخذ الرواء ، ألا وهو نجم شاعرنا الفيلسوف ، والحكيم النابه ، والعالم المبرز ، والخطيب المفوه ، والثائر البليغ ، والمسلم الحق (محمد إقبال) ..!

وُلد شاعرنا العظيم في بلدة (سيالكوت) - في إقليم (البنجاب) - حيث الأنهار الجارية التي تنحدر عبر التلال الجميلة ، حاملة في خريرها وتدافع أمواجها ، قصة الأزل ، وسنة الأبد ، لذلك تفتحت عينا (إقبال) - أول ما تفتحتنا - على مناظر بلاده الجميلة ، وطبيعتها الخلابة فوق السفوح والسهول ، وفي السماء والأرض ، ولم يكن يشوّه جمال هذه البقاع إلا هوان أهلها ، فالخيرات والنعم قد استحوذ عليها غاصب ، ومصادر الأرزاق والحياة قد استحوذ عليها وتحكّم فيها دخيل ، والاسلام قد صار بين ذويه أطلالاً خربة ، وصوامع مهدمة ،

وأشباحاً لا روح فيها ولا حياة ، ورموزاً لا تبعث على فهم
أو تمييز ...

فهل هناك برهان أسطع على هذا من تلك الحال الزرية ،
والهاوية السحيقة التي انساق اليها المسلمون ، وغير المسلمين ،
في الهند ؟؟..

وهل الاسلام إلا العزة والكرامة والإباء ؟؟.. فإذا ما انعدمت
هذه المثل وانهارت تلك القيم ، فهل من المستطاع إذاً أن نقول
أن الإسلام ما زال بجحير ، أو نقول أنه لم يبقَ منه غير القشور
والأسماء المجردة ؟؟.. كان على الغافلين أن يتنبهوا ، وعلى الغارقين
في نومهم أن يهبوا ؛ كي يلبوا داعي البعث والنشور ..

وشاء الله أن يكون (اقبال) في طليعة الثائرين الداعين إلى
البعث ، ويا لها من تبعة ضخمة !!..

أباؤه :

ينتمي (اقبال) إلى سلالة وثنية كريمة الأصل ، عريقة المنبت ،
كانت تعيش في (كشمير) . وكانت هذه السلالة من (البراهمة)
أسمى وأكرم طبقات الهند ، وتنتسب إلى (الجنس الآري) ،
فالبراهمة هم ذؤابة سكان الهند ، ولهم لواء العظمة ، ومعقد
الفخار والسيادة والسيطرة ، والقيمة على طبقات الهند المختلفة -
أمرها مطاع ، وقولها قضاء نافذ ، رغم أنها تعبد الأصنام ، وتقدس

التماثيل. وكان لهذه الطبقة قانون مدني وسياسي اسمه (منوشاستر)، يقسم المجتمع الهندي إلى طبقات أربع ، تقسيماً قاسياً ظالماً ، على أساس الاستعباد ، والاستغلال الفظيع للطبقات الدنيا واحتقارها . فالبراهمة قوم ملحقون بالآلهة ، وهم صفوة الله ، وملوك الخلق ، وكل ما في العالم ملك لهم .. وهم سادة الأرض ، لهم أن يأخذوا من مال عبيدهم ، أي الطبقات الدنيا ، ما شاؤا^(١) . ولم يكونوا يدفعون أتاوة ، وإذا استحق أحدهم القتل اكتفى بجلق رأسه فقط ، وترك حياً !! ..

تلك هي حال (البراهمة) ، الطبقة التي انتمى إليها أجداد (اقبال) . وقد تعجب أيها القارئ حين تعلم أن هذه الأسرة قد تنازلت عن امتيازاتها ، وحققها الالهي ، ومنزلتها الرفيعة المرموقة ، تركت كل هذا لتتضوي تحت لواء الإسلام الحنيف ، الذي لا يفرق بين أبيض وأسود ، أو أصفر أو أحمر ، وكان ذلك بمحض رغبتها ، وبدافع من تفكيرها السليم ، فلم يرغبها على ذلك سيف ، أو يدفعها دافع تافه ، من جزية أو تهديد أو وعيد ..

وبهذا أصبح ذلك الجد الأكبر ، الملقب بلقب (بنديت) فرداً عادياً ، لا يعترف بالفرق الشاسع بين برهمي ومنبوذ .. وكانت

(١) للأستاذ الندوي .

هذه الهداية على يد أحد رجال الصوفية في (كشمير) ، ولذا
ظلت النزعة الصوفية متغلبة على أفراد الأسرة فيما بعد !!...

وهكذا نرى أن هذه الأسرة التي تقلبت في أحضان البرهمية
وعاشت في أبراجها العاجية وترى نفسها لاحقة بالآلهة ومن
دونها عبيد وحشم ، نراها بعد ثلاثة قرون قد أنجبت (اقبالا)
الذي يقول :

« يجب أن تفني في دينك وملتك ، بعد أن تكسر أصنام
اللون والدم ، حتى لا يبقى في العالم (توراني) ولا (ايراني) ولا
(أفغاني) .. »

ثم يقول في موضع آخر :

« إن مقاصد الفطرة الأولى ، ورمز الإسلام الحقيقي هي أن
تملك العالم بالأخوة ، وتحكمه بالمحبة ، .. »

فما موضع هذا الكلام بالنسبة لأجداده البراهمة الذين كانوا
ينظرون إلى المنبوذين نظرتهم إلى الكلاب والقطط والبوم أو ما
دون ذلك ؟؟ ..

وهكذا استطاع الاسلام - بسماحته الحقة ، وتعاليمه
الخالدة ، وشريعته البيضاء - أن يفزو تلك القلوب البرهمية
المتألهة ، ويتغلغل في أعماقها ، ثم يقوم بأخطر انقلاب مادي

ومعنوي في حياتها ، فتظهر في ثوب جديد ، وتنطلق بقلوب جديدة ، ودوافع فطرية سليمة ، وهل الاسلام إلا الفطرة السليمة والغريزة المهذبة الطيبة ، والاستجابات الطبيعية لنواميس الحياة ومؤثراتها؟؟ .. وما أن تسربت هذه العقيدة الاسلامية الجديدة عبر الأجيال إلى (إقبال) ، حتى تلقاها باستعداده الصادق وبيئته العريقة ، وفهمه الدقيق ، فهتف بأنغامه الشجية ، وألحانه القوية ، حتى يثير روح البعث في الخاملين من أبناء الهند ، مسلمين وغير مسلمين . ولقد قال أحد زعماء الهنادك :

« إن (إقبالاً) قد وضع المصباح على باب المسلم ، ولم يحجب نوره عن غير المسلمين ، بل أمكن للجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح » .

وقد يثير هذا الانقلاب العجيب شيئاً من التساؤل : أمن (برهية) نافرة ، إلى إسلامية وضيئة ، متضلعة مستقيمة؟؟ ..

والجواب على هذا التساؤل سيكون بسيطاً غاية في البساطة ، لو عدنا إلى الوراثة عدة قرون ، عندما أشرق فجر الاسلام أول مرة على الجزيرة العربية بقوته العجيبة ، وسحره النفاذ ، الذي استطاع به أن يحدث انقلاباً نفسياً هائلاً ، جعل من القبائل المتنافرة المتناحرة إخوة أوفياء ، يؤمنون بأن التفاني في سبيل الحق ، والإيثار والتسامح والإخاء والمساواة ، هي الحياة والنور والهداية . وسرعان ما اعتنقت وتصافت رايات (الأوس)

و (الخزرج) بعد أن كانت ملوثة بدماء الحقد ، ولم تعد تخفق
إلا لله ، ولا تصطبغ إلا بدماء الأوغاد والطفساء ، من خصوم
دعوة التحرير والإيمان ، واستطاع الاسلام الوليد أيضاً أن يخلق
من قطاع الطرق ، ولصوص الآكام حفظة للأمن ودعاة للسلام ،
وحملة للنور والمعرفة ...

واستطاع الدين الحنيف أن يكسر حدة النفس ، ويكبح
شهواتها ، ويجمع بين (بلال) و (أبي بكر) و (سلمان)
و (علي) ، فتلقى السوق مع الأشراف ، والعبيد مع السادة ،
لأن الطريق واحد ، والغاية متحدة ..

وهذا ما حدث في الديار الهندية لأسرة (إقبال) ، فكان
الانقلاب الخطير الذي بدل حياتها ، وشكل سلوكها وتفكيرها ،
وصبغ حياتها بهذه الصبغة الجديدة : « صبغة الله ومن أحسن من
الله صبغة ؟ ... »

صحيح أن (إقبالاً) كان يحظى بقدر كبير من الإباء والشمم
والكبرياء ، لكن هذا كان مع قوم ذوي مراكز مرموقة في
الاجتمع الهندي ، لكنه كان في الوقت نفسه يظهر التواضع الجرم ،
والاحترام الزائد لمن هم دونه في المرتبة ونباهة الشأن . فلقد
دعاه أحد أصدقائه الأغنياء (١) في (لاهور) إلى وليمة عرس ،

(١) عن كتاب (فلسفة إقبال) .

ولكن في نفس الوقت جاء إليه أحد معارفه الفقراء - وكان طاهياً - يدعو إلى وليمة أقامها في بيته ، فلم يتوجه (اقبال) إلى مائدة ذلك الثري ، بل ولى وجهه شطر صاحبه الفقير ليكل أفراسه ، ويضفي على منزله الهناءة والسرور ، لكن (اقبالاً) المهذب لم ينس أن يمر على بيت صديقه الثري ، ليقول له : « لقد قبلت دعوتك في كرامة صديقي الطاهي ». فكان اعتذاراً لبقاً جميلاً .

وهكذا كان (اقبال) طول حياته مسلماً قلباً وقالباً ، لا برهياً متعجرفاً ... مسلماً يبش في وجوه البائسين والفقراء ، ويخالطهم ويخالسهم ويهتم بأمرهم !! ..

لقد عرف (اقبال) نفسه في غير زيف أو خداع ، وجردها من أوهاما وغلوأها ، وطهرها من عبثها وعرثاتها ، ووقف تجاهها صريحاً قوياً . ثم عرف من هم أجداده في الأمس البعيد ، وهم (البراهمة) ، ومن هم آباؤه في الأمس القريب ، فقام من فوره ليضع لنفسه ، وللسلمين في شتى أنحاء الهند وخارجها ، فلسفته الميسورة الواضحة ، المستقاة من صميم عقيدته وكيانه وهتف قائلاً :

« كان آبائي براهمة في الكفر ، وزهاداً في الإسلام وعاشوا يفكرون في ذات الله ، ورأيت أن تكون بداية التفكير نحو قدرة الله ، في ذات الإنسان - فمن عرف نفسه عرف ربه ... »

لقد أراد أن يبدأ الطريق من نفسه منطلقاً إلى الله سبحانه ،
فهو غاية الغايات ، ومنتهى الآمال .. وسنذكر شيئاً موجزاً عن
فلسفته فيما بعد !..

والده :

إذا كانت فترة الطفولة هي التي تحدد مستقبل الانسان - كما
يقول علماء النفس - وهي التي تسم تصرفاته ، لما قد يكون
اكتنفها من حوادث ، أو ألم بها من مشاعر وعواطف وصدمات
وغير ذلك ، - إذا كانت فترة الطفولة هكذا ، فإنها في الواقع
قد أثرت في (إقبال) أيما تأثير ، وتركت في نفسه خطوطاً
عميقة ، مهدت لحياته التي ارتضاها لنفسه ، وأوضحت الطريق
للخطة التي آمن بها وانتهجها . ومن بين تلك العوامل الهامة التي
ينطبع بها الطفل ، منذ فجر حياته هي طبيعة الوالدين !..

لقد كان والد (إقبال) صوفياً زاهداً ، يهتز فؤاده رهبة
وإشفاقاً ، وتدمع عيناه خوفاً ووجلاً ، كلما ذكرت الجنة والنار
وكلما سمع أو قرأ عن هول يوم الحشر ، ورهبة يوم الحساب ،
ومثل هذا الانسان لا يفتأ يذكر أن رحلة الحياة قصيرة الأمد ،
ومهما لازمناها ، وهونا وانطلقنا في رحباتها ، فإن لآمالنا نهاية ،
ولأطماعنا عمراً محدوداً ، فلا خلود إذاً إلا للعمل الصالح ، ولا
خير في شيء إلا طاعة الله فيما أمر به ، والانتهاه عما نهى عنه !.

ففي كتاب (إقبال) - (أسرار الذات) - يقول :

« وقع على باننا سائل وقوع القضاء ، ورفع صوته كأنه
نعيب غراب ، وأخذ يهز الباب .. ولما ألمني تصايحه وإلحافه ،
خرجت إليه .. فأهويت على رأسه بضربة بعثرت ما بيده ، مما
جمعه طوال يومه ، فلما رأى والدي تلك الحادثة اصفر وجهه
الأحمر ، والمحدرت الدموع نهرًا على خديهِ وقال :

« تذكر يا بني جلال المحشر ..

يوم تجتمع أمة خير البشر ...

وأرجع البصر كربةً إلى لحيتي البيضاء ..

ونحول جسمي المرتعش بين الخوف والرجاء ..

كن يا بني من البراعم في غصن (محمد) ..

وكن زهرة يحببها نسيم ربيع (المصطفى) .. »

في مثل هذا الجو الروحاني الزاخر بالإشفاق من يوم اللقاء ،
العامر بالحب الخالص لبني البشر ، المتأرجح بين الخوف من المصير
الجهول ، والرجاء في الغد المأمول ... في مثل هذا الجو عاش
(إقبال) ينظر فيرى أباه لا يفتأ يتحسس - بأنامله المرتعشة
الواهنة - تلك اللحية البيضاء التي تؤذن باقتراب الرحيل ..
وتندب بانتهاج الرحلة الدنيوية القصيرة .. وسرعان ما تحوم في

ذهنه مناظر المحشر ، ومشاهده العصيبة ، التي تنوء تحت ثقلها
أقوى القلوب شجاعة ، ويتلعم عندها أقوى الناس فصاحة
وبياناً ...

وقد يظن ظان أن مثل هذه الحياة الخائفة الوجلة ، وتلك
القلوب الواجفة التي تظل تذكر القيامة والعذاب والثواب ،
تكون دائماً نهياً للقلق ، وميراثاً للحيرة والشقاء الذي لا ينفد ،
لكن الحقيقة غير ذلك ، لأن مثل تلك النزعة الصوفية الطاهرة
إذا ما سيطرت وتحكمت في الانسان ، سرعان ما يرى في الحرمان
لذة أي لذة ، ويرى في خوف الله طاعة لا تدانيها طاعة ،
وسعادة لا تعادلها سعادة ، فلا حيرة إذاً ، ولا شقاء ولا قلق
ولا شك ، وإنما الرضا الشامل والسلامة والأمان ..

فلا عجب إذا ما ذكر (إقبالاً) أبوه بالمحشر وهوله ، ثم
أتبع ذلك بوصية رائعة لفلذة كبده الحبيب ، كي يكون برعاً
وضاء حياً ، في الفصن اللدن النضير ، والفرع النبوي المونق ،
ولكي يكون زهرة لا تنعشها إلا النسائم الربانية ، ولا تحيها إلا
الحفقات والنبضات الاسلامية ، ولا تستنشق إلا ريح الدين
وأنفاص الرسول العربي (محمد بن عبد الله) ...

وكأني بإقبال ، ذلك الفتى الغض اليافع ، وهو يتلقى تلك
الأنفام السلسة تتدفق من فم أبيه في سهولة وغير تكلف ،
صادرة من أعماق روحه المؤمنة ، نابغة من فيض نفسه الناصعة

الورعة ، فيتلقفها (إقبال) في سهولة وغير تكلف أيضاً ،
ويتقبلها تقبلاً سريعاً طبيعياً ، ثم تسري في قلبه وفؤاده ، فتصير
هذه المعاني لديه في الحياة !.. هي الاسلام والسعادة والنعم
الأبدي ، والراحة في الدنيا والآخرة !..

إن الجرعات الدينية النقية هي الدواء الناجع للبشرية
الحائرة ، وإن في الكؤوس الروحية الخالصة لنشوة سامية تنفي
عن الانسان ظلمات الشك ، وتحجب عن عينيه أصنام اليأس ،
والاستسلام ، وترده إلى حظيرة الخير والحب والصفاء ، ولطالما
ارتشف (إقبال) من تلك الكؤوس فشفت من نفسه جراحاً ،
وأبانت له عن طريق سليم واضح ، وكشفت له عن أشياء ، ما
كان ليكشف عنها ، وينعم بيجهاها ، لولا تلك الجرعات النافعة ،
وما أجمل قوله :

اليوم أسمعتك احتدام مشاعري وصراخ إيماني وصوت منايا
المستحيل بدا لعيني ممكناً سأرى الخليفة ما رأت عينايا



لم ألقَ في هذا الوجود سعادة كمودة الانسان للانسان
لما سكرت بنجرها القدسي..لم أحتجُ إلى تلك التي في الحان

هذا هو نتاج « الزهرة التي يجيئها نسيم ربيع المصطفى » ،
كما قال له أبوه من قبل ، وهذا هو (إقبال) الذي يوقد (شموع

القلوب) بعد أن غرقت في ببداء الظلمات ، ويبعث في ثورة
صرخة الإيمان والأمل ، بعد أن ضرب اليأس أطنابه ، وساد
(الهند) عسف وطغيان وفساد ، وطوى المسلمين خنوع
وإذلال !..

وهكذا عوّل (إقبال) على أن يصيح ويصيح ، حتى يملأ
ربوع الهند والعالم الاسلامي صياحاً ونداء ، كي يبعث النائمين في
الكهوف ، والموتى في القبور .. قبور الضياع !.. ولكي يصرف
القلوب الضالة الكافرة عن كأس الشيطان ، ويتجه بها إلى كأس
المودة ، وظل الاسلام والتحرر والمحبة !..



بين العلم والعمل

إن الدعوات الكبيرة ، ذوات المرامي البعيدة والأهداف الإنسانية ، قلما تنجح بالمصيبات الجامحة وحدها ، وقلما تستطيع أن تمضي بين العواصف والأنوار الثائرة بهذا وحده ، فلا بد من الفكر الثاقب ، والعلم الواسع ، والقلوب الكبيرة الواعية والمعقدة القوية الصادقة التي لا اهتزاز فيها ولا غموض ... وعندئذ تسهل التوضيحات ، وتنضح المناهج ، ويعي الداعية ما يقول ، وبالتالي يعي الناس ما يلقي إليهم ، فيشمنون منه روح الصدق ، وبوادر الإخلاص ، ونوايا الوفاء .. وهنا تراود أخیلتهم أحلام البعث والتحرر ، وتظل تلح وتلح عليهم ، وتتجسم أمام بصائرهم ، حتى يستجيبوا لها ، ويهبوا كالأقذار النافذة التي لا تدعن ولا ترضخ ، ولا يخيفها بلاء مها كثر ، ولا يروعها بذل مها غلا ، ولا يعوقها حاجز مها علا وصمد ..

نقول أن الفكر الثاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة والعقيدة الصحيحة ، هي الاستعداد الواجب لمن يخوضون طريق الإصلاح والبعث والتحرير ، فهذه إذاً هي القاعدة ، وحينما نقول العلم ، نقصد العلم عامة سواء من الشرق أو الغرب ، وفي (لاهور) أو (كمبردج) أو (ميونخ) .. ونقول أيضاً العلم الذي يغزو العقول ، ويصل إلى أعماقها ، فتفرزه وتفحصه ، وتأخذ منه بحذر كل ما يفيدها ، ولا يخالف فطرتها ، أو يضاد عقائدها ومثلها العليا !..

إن من يتلقى كل شيء بقبول حسن ، ويقبل كل علم ، ويؤمن بكل نظرية ، دون فحص أو تمحيص ، فيلغى شخصيته ويتناسى وجوده ، مثله كمثل الذي فقد حاسة الذوق ، فهو يأكل الشهد ، دون أن يشعر له بلذة ، ويتناول المر دون أن يدري له غصة أو مرارة ... إنه يأكل فقط ليملاً معدة خاوية ، ويقضي عادة متبعة ، وتقليداً جارياً .. ولكي يعيش !..

كان (إقبال) - شاعر الاسلام - من الصنف الأول من الرجال الذين ينهلون من العلم أنى وجدوه ، ويلحقون به أينما رحل !..

وفي أثناء ذلك ، كان (إقبال) يلتقط الآراء السليمة والحكمة العالية ، والأفكار المستحدثة وغير المستحدثة ، فينقدها ويفندها ويردّها إلى أصولها ، فيعلم الثمين من التافه ، والنافع من الضار ...

وظل رأيه هكذا متحرر النزعة ، متحرر الفكرة ، يناقش وينقد ، ويبتكر ، ويقدم إنتاجه في ثوب رائع قشيب لا تملك أمامه إلا أن تبدي الإعجاب ، وكان نتيجة ذلك أن أصبح (إقبال) ذا فلسفة جديدة ومذهب مستحدث ، وآراء عميقة ، يتناولها الكتاب والفلاسفة من قطر إلى قطر ، ومن جامعة إلى جامعة ، في (إيران) و (الأفغان) و (مصر) و (المانيا) و (إنجلترا) و (إيطاليا) و (روسيا) ..!

أجل ، ان المقلد الأعمى لا يأتي بمجديد ، بل يجلب على نفسه السخرية والضحك أمام الأجيال التي تتوق إلى الخلق والانشاء وتتلهذ بالمجديد النافع ، وفي نفس الوقت تناع شخصيته ، وتذوب فرديته أو (ذاته) ، التي حرص (إقبال) في فلسفته أن يجعل منها رمز التقدم ، وشعار التحرر والمجد والخلود كما سئرى ...!

ذهب (إقبال) منذ نعومة أظافره إلى مكتب تحفيظ القرآن في (سيالكوت) فما أن يتحرك النهار ، وينحسر ظل الليل رويداً رويداً ، وتثب الشمس من الأفق الشرقي حتى يكون (إقبال) جالساً يستقبل الفجر وأنداء الصباح تتمسح بوجهه البريء الصغير ، فيهب في نشاطه المعهود ، ويصلي من خلف أبيه الشيخ الزاهد ، ثم يتلو القرآن ، وقد حرص أبوه - المربي

الفاضل — على ألا تكون قراءة (إقبال) كلمات تلقى ، وآيات
تتلى وإنما قال له :

« يا بني اقرأ القرآن ، كأنه نزل عليك ... »

وفي ذلك يقول (إقبال) :

« .. ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ،
فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت ! .. »

كان الشيخ يريد لابنه أن يعي ما يقرأ ، ويفهم ما يتلو ...
ثم ماذا ؟ .. ثم يتصور أن هذا القرآن قد نزل عليه هو ، أي أن
الله يخاطبه ويدعوه أن يعمل ويكافح ويثابر ، ويتلقى المسؤولية
كاملة ، ويقوم بأعباء أخطر رسالة ، وينهض بأثقل حمل ،
فلكل مسلم دور كبير إزاء إسلامه ، فيجب أن يؤديه بكل
دقة وإخلاص ، فليس الإسلام استظهار متون ، وحفظ حواش ،
بل هو فهم وإدراك ، وصيحة للحق والنور والهداية ، والسيدة
عائشة (رضي الله عنها) تقول عن النبي ﷺ : « كان خلقه
القرآن ! .. »

وقراءة القرآن في الصباح زاد رائع لا يدركه إلا المجرّبون ،
ونور رزين طهور ، لا يطرب له إلا المؤمنون ، إذ أنه يطبع
الإنسان بطابع الرقة والحب ، ويبيته هدوءاً وأمناً عجيبين ! ..
لذلك كان (إقبال) منذ صغره فاحص النظرة ، ملهم الحكم ،

يخترق بثاقب فكره الحجب المتكاثفة ، ويفوض بعقلة المؤمن إلى أعماق الحقائق !... فلا يقنع بالأصداف والقشور ، عن الجواهر ولباب الحقائق !..

ثم انتقل (إقبال) إلى مدرسة (سيالكوت) ، وما أن أتم دراسته الثانوية حتى التحق بكليتها ، حيث تلقى أصول اللغة الفارسية والعربية على أستاذه السيد (مير حسن) !... ولقد امتاز طوال هذه الفترة ، بذكائه الحاد ، وبديهته السريعة ، وحوزه لقصب السبق بين أقرانه ولداته ، ونتج عن ذلك أن نال الجوائز السنوية ، ونال فرصة الدراسة بالمجان .

ولعل من نافلة القول أن نذكر شيئاً عن أخلاقه وسلوكه ، اللذين قد انطبعا بنشأته الدينية ومدرسته القرآنية ، وأسرته المؤمنة المتصوفة ، فكان سمحاً هادئاً معواناً ، رقيق الحاشية ، طيب العاطفة ، واسع الصدر ، يحترمه الجميع ، ويحبه كل من اتصل به وعرفه حتى أساتذته ، وفي هذه الفترة ازدادت تأملاته ، وازداد نشدانه للحقيقة ، كأنما كان يحلم بالاستقرار الفكري وهدوء البال ، فاستمع إليه وهو يقول :

« أنا طالب النور ... أنا قلق في معمورة هذا العالم ... أنا مثل الطفل الصغير في ظلام الوجود الحالك ... أنا مضطرب كالزئبق !... »

فما السر في هذا الاضطراب المفاجيء ، والحيرة المباغثة التي

انتابت (إقبالاً) ؟؟... لقد ودع (إقبال) طفولته الوداعة ،
وصباه الساكن الهادىء ، وتعلم الكثير في المدرسة والجامعة
وقرأ عن الدنيا ، دنيا الأمس واليوم ، وسمع عن العالم الحديث ،
عالم الغرب والشرق ، ولقد كان لهذه الفترة الانتقالية أثر في
حياته أي أثر ، وتلقى (إقبال) سني شبابه ، في شيء من الألم
والقلق ، وكان لذلك سببان اثنان يكادان يكونان العاملين
الهامين في ذلك :

أولهما : أن الهند في تلك الفترة ، قد استسلمت للاستعمار
الغربي تحت التهديد والوعيد بعد أن لاقى الأحرار فيها ما لاقوا:
من أذى واضطهاد ، وإراقة دماء ، وتكيم أفواه ، وكبت
حريات .. ولا شك أن للإجراءات الشاذة ، والتصرفات
الجائرة التي يقدم عليها المحتلون ، أثراً عميقاً بليغاً في نفوس الأمم
المغلوبة على أمرها ، كما أن المعارك الدامية التي قد تنشب بين
القاهر والمقهور ، ثم تنتهي إلى النتيجة الدامية التي كثيراً ما تتبع
صراع الحق الأعزل مع الباطل المسلح ، لا شك أن لذلك كله
أثراً في نفوس أبناء الشعب - وخصوصاً الواعين الفاهمين منهم -
فلا يعقل أن يستمتعوا بالهدوء في ظل الطغيان ، أو أن ينعموا
بالسعادة تحت جناح الفساد ، ويأنسوا بالراحة ، في جو خائق
مكفهر ، تنزف فيه طائرات العدو ، وتلوثه أنفاسه الدنسة
الباغية !...

وثانيهما : الاسلام : الاسلام الذي سمع عنه (إقبال) رضيعاً ،

وتشرّبه معنى ومبنى ، منذ أن درج في رحبة بيتهم الكبير ،
والذي رأى سماته وملاحه تشع في وجه أبيه الشيخ وأمه !..
لقد علموه صغيراً ويافعاً أن في الاسلام خير الدنيا والآخرة ، وأن
بين دفتي القرآن العصمة والمعرفة والهداية من الضلال ، والنجاة
من الهاوية ، ثم تأكد هو نفسه أن التاريخ يحمل في طياته
للالسلام كل تمجيد وشكران ، وأن الدنيا ظلت تتغنى بتلك
الأجداد أجيالاً وأجيالاً !..

لكن ماذا قد حدث ؟.

لقد نسي المسلمون كل هذا أو تناسوه .. فاستسلموا وتواكلوا
وخيل اليهم أن هذه المصائب قدر لا يُردّ ، وقضاء نازل
لا يستطيع احد ان يمنعه !..

ضاعت نفس (إقبال) وفاضت بالألم والحسرة والحزن ، فهو
يلتفت الى الماضي الزاهر العامر فيشعر بالقوة وبالسعادة تغمر
جوانحه ، ثم يرتد طرفه الى الحاضر المزري المخزي ، فيشعر بمدى
الكارثة التي حلت بقومه ، وتوشك أن تفيض الدموع من عينيه
فيصبح هاتفاً : « أنا طالب النور !.. أنا قلق !.. » النور الذي
يقوده الى النصر ، والقلق الذي بذره فيه لانتظار المستقبل المجهول .
وطالب النور متى ألح في طلبه ، - وصرف وقته باحثاً مفكراً
مدققاً ، مسلحاً بالخبرة والمعرفة معتصماً بالصبر والنضال فهو لا
بد واصل الى ما يريد ، نائل ما يأمل ، فما أن تمر تلك الفترة

الحائرة بناها التي تنضج ولا تحرق ، وتنبير ولا تعشي العيون
حق يهتف (إقبال) بمد سنوات قائلاً :

مسلماً ، ان ترد حياة فيها ما بغير القرآن تأتي الحياة

في (لاهور) :

إن (إقبالاً) يمضي الى الأمام ، تدفمه سورة الباب ، وعشق
العلم ، وقلب الشاعر الفتى الطموح !..

لقد فتحت كلية الحكومة في (لاهور) ذراعها لاستقبال
الشاب الذي ، وأخلت له (جمعية حماية الاسلام) هناك منبرها ؛
ليذيع من فوقه شعره القوي النابض ذا الروح الجديدة ،
والاسلوب الفريد .

وفي الكلية فاق وتقدم أقرانه ، فنال (ميداليتين) ذهبيتين ،
ومساعدة الحكومة الشهرية له جزاء اجتهاده .

وعلى منصة (جمعية حماية الاسلام) أخذ يردد قصائده ،
فجوبت شهرته الآفاق ، وسمع عنه القاصي والداني .

وبعد حين استطاع أن يحوز ثقة أصدقائه وعارفيه في تلك
الجمعية ، وبعد أن رأوا ما رأوا من غيرته على الدين ، ودفاعه
عن الحق ، ودعوته الى الكفاح ، اختاروه سكرتيراً للجمعية .

واستطاع (إقبال) أن يوائم بين الشعر والسياسة ، وان بدا كل منها على طرفي نقيض .. ولا عجب في ذلك ، اذا ما عرفنا قوام ذلك الشعر وموضوعاته وأهدافه ، وعرفنا صيغته ، فشر (إقبال) عماده الفقه المتين ، والمنطق السليم والوجدان الحي المؤمن ، يتخذ من أمراض المسلمين وأدوائهم ومشكلاتهم مادته ، ولم يكن يهدف إلا الى التحرر والخلاص ، والعودة الى الينابيع الاولى ، مع الاستجابة لأحداث العصر ، ومشكلات الساعة .

وفي كلية الحكومة بـ (لاهور) التقى (إقبال) بأستاذه الفيلسوف المستشرق (توماس أرنولد) وهو من خيرة من درسوا الاسلام والتصوف الاسلامي ، وله مواقف كريمة في الدفاع عنه ، ورحب الاستاذ ببيل تلميذه الى الفلسفة ، فكان له خير مرشد ومعين ، وسرعان ما توثقت بينهما أواصر الصداقة ، واستحكمت روابط الإلفة ، ثم نال (إقبال) بعد ذلك شهادة في الفلسفة .

وكثيراً ما كان الاستاذ (توماس) يفخر بذلك تلميذه ، ويمتاز بصداقته ، وظلت هذه العلاقة وطيدة الأركان ، وقد حدث أن (إقبالاً) اثناء تجواله في ربوع اوربا ، في الفترة ما بين ١٩٠٥ / ١٩٠٨ م ، قد سيطر عليه حب العلم والفلسفة ، فأراد أن يتفرغ لها ، ونفر من الشعر وعول على هجرة إلى غير رجعة ، غير ان أستاذه لم يوافق على ذلك مطلقاً ، فرضخ (إقبال) وواصل انتاجه الشعري الذي امتزج بالفلسفة ، واختلطت به حقائق العلم مع سبجات الخيال ..!

ولقد كانت صحبة (إقبال) لأستاذه (توماس أرنولد) ذات فوائد كثيرة ، ومدى بعيد فقد استمع (إقبال) إلى رأي أستاذه في كثير من المعضلات والأوضاع الفكرية ، ونهل على يديه الشيء الكثير من الثقافة الغربية وفلسفتها ، وبإضافة هذا إلى استعداده الطبيعي استطاع (إقبال) أن يرتكز على قاعدة متينة وأن يثبت الأرض تحت قدميه ، فلا تهتز أو تميد به ، ولقد شهد له أستاذه بذلك فيما بعد ، حين طلب من (إقبال) أن يقوم بمهمة التدريس ، بدلاً منه ، في جامعة (كمبردج) لمدة ستة أشهر ، حظى (إقبال) اثناءها بالتعرف على عدد غير قليل من رجالات الفكر والأدب ، وأساتذة الجامعات ، فاتسع مجال صداقته كما اتسع مجال فكره ، فلم يكذب يضي على ذلك بضع سنوات حتى كان بعضهم ينحني على الورق ، ليترجم إلى الإنجليزية ثمار تلك العبقرية الهندية المسلمة ، وكان ذلك على يد الدكتور (نكلسن) الذي ترجم ديوان (أسرار خودي) أي أسرار الذاتية أو الشخصية ..

نعود مرة ثانية إلى (إقبال) ، بعد أن أنهى دراسته الجامعية (بلاهور) ، فنجد أنه قد عين أستاذاً للفلسفة والسياسة المدنية بالكلية الشرقية في (لاهور) ، ثم أستاذاً للفلسفة واللغة الإنجليزية في كلية الحكومة هناك .. وكان ذلك هو الدليل المادي على تقديرهم لغزارة علمه ... ورجاحة عقله ، وعظيم عبقريته !..

كان (إقبال) ينشد آفاقاً أرحب ، ومجالات أوسع ، فضلاً عن أنه يريد مزيداً من .. المعرفة والفلسفة ، ويتمنى أن يرى بعينه معالم المدنية الحديثة ويلم بكل أطرافها ، لأنه لم يرَ منها في بلاده غير ظلها الاستعماري الأسود الجاثم على صدر (الهند) ولهذا قام برحلته إلى أوروبا .

في بلاد الغرب :

قام (إقبال) بهذه الرحلة في عام ١٩٠٥ م قاصداً (إنجلترا) ثم التحق بجامعة (كمبردج) ، ونال منها شهادة في فلسفة الأخلاق ، وواصل سيره بعد ذلك إلى حيث التحق بجامعة (ميونخ) ، في (ألمانيا) ، فنال منها درجة (الدكتوراه) في الفلسفة ، وبعد عودته إلى (لندن) لم يضيع وقته في العبث واللغو ، بل نال شهادة (المحاماة) من جامعة (لندن) .

وفي أثناء ذلك ، توسع (إقبال) في قراءته عن (نيتشه) و (هيجل) ، (شوبنهاور) وغيرهم ، وقارن بينهم وبين فلاسفة الشرق ، أمثال (ابن سينا) و (ابن رشد) و (ابن عربي) و (جلال الدين الرومي) و (الشيرازي) ... وغيرهم من الفلاسفة والمتصوفين .

ولقد أصبح (إقبال) بعد ذلك ضليعاً في الفلسفة ، ملماً بدقائق علم الأخلاق ، دارساً للقانون أعمق دراسة ، وقد أعانه

ذلك على بحث تاريخ الثورات الكبرى، كالثورة الفرنسية مثلا،
وعرف عن كتب حضارة الغرب الحديثة ، وعرف مقوماتها
ودوافعها وأهدافها ، وأدرك عيوبها وماخذها ، وتيقن أنها
نهضة مادية رائعة ، لكنها نهضة عقلية لا قلب لها ، ولا روح
فيها !...

وعاء شاعرنا وقد اكتسب الكثير من الأفكار الحديثة التي
كانت أوزان الشعر وقيوده توشك أن تضيق بها ولا تتحملها ،
لكن (إقبال) بما أوتي من لباقة وسعة أفق ، وامتلاك لخاصية
القول ، استطاع أن يجعل الشعر أطوع له من بنانه ، وأشد تلبية
له من خادمه الوفي الأمين . وهكذا مزج (إقبال) الشعر بالعلم ،
وخلط قواعد الفلسفة وقوانينها بخفة الخيال وروعته ، فخرجت
أوزانه قوية المعنى والمبنى ، أو كما يقول عنها :

كفاح شديد وضرب شديد فلا ترجُ في الحرب عزف الوتر

وبعد أن درس (إقبال) الحضارة الغربية ومدلولاتها ،
وقارنها بالحضارة الإسلامية ومضموناتها ، خرج بنتيجة حتمية
لا مناص منها ، إذ لا يمكن تجاهلها أو تناسيها ، لأن ذلك سيكون
على حساب الإنسانية ، وعلى حساب سعادة البشر .

وهذه النتيجة التي وصل إليها (إقبال) لم تكن نزعة
متعصب ، أو زعم متدين أخرق ، ضيق الفكر ، لا يرى الحق

إلا من خلال معتقداته ، بل كان تقريره نتيجة لتلك الدراسات الطويلة المضنية ، والتعمق وراء الفلسفات المتباينة ، وفهمه للمدنية الحديثة فهماً صحيحاً دقيقاً لا تحيز فيه ولا حيف ، وليس أدل على عدم التحيز من أن يذكر (إقبال) المميزات والمفاخر يجانب المثالب والمآخذ، ويأتي بقضايا مدعوماً بالأدلة والبراهين.

والآن ما هي النتيجة التي وصل إليها (إقبال) ؟

قال للغربيين :

« إن حضارتكم سوف تقتل نفسها بجنجرتها .. إن العش لا يثبت على غصن رطيب ضعيف مضطرب ... » ، لأنها حضارة كافرة القلب ضائعة الروح ، وموازن القوى المادية هذه في تفسير وتبديل دائم ، فهي إن كانت للغرب اليوم ، فستزول عنه بأسرع من السرعة التي حصل بها عليها ، ولو أراد الغرب للبشرية خيراً ، لتلافى ما وقع فيه من أغلاط ، في وسائله ، وأهدافه وسياسته !

وتيقن (إقبال) أيضاً أن البشرية لن تسعد وتنهأ إلا إذا حطمت فوارق اللون ، وعصبيات الجنس ، وبطلت اللوصية المالية ، وقضى على الاستعمار وعبادة المال ، ولن يتحقق ذلك إلا في ظل المبادئ الإسلامية الخالدة ، التي تحرم الغزو الاقتصادي ، ولا تشرع الرماح إلا لإحقاق حق ، أو نشر هداية ،

ولا تؤمن إلا بالسلام والأخوة والحرية والقيم الانسانية الرفيعة ،
لذا يقول (إقبال) في معرض حديثه عن (عصبية الامم) :

حكمة الغرب فرقة الناس والاسلام فيه توحد العمران
خبريني اليقين : هل عصبية الآفة وام خير أم عصبية الانسان ؟

ثم يرى (إقبال) أن المسلم الحق ، والمؤمن الصادق الإيمان
هو الملجأ الوحيد لهذا العالم الحائر الزائع ، فلن تمحي ظلمات
الفساد والضلال والتحكم والتسلط والجشع ، إلا بأضواء الاسلام ،
وسفينة الحق الضالعة في هذا العالم - عالم الهوى - لن تجد رباناً
سوى المسلم الحق :

ان هذا العصر ليل ، فأز أيها المسلم ليل الحائرين
وسفين الحق في لجج الهوى لا يرى غيرك ربان السفين



أنت كنز الدر والياقوت في موجة الدنيا وان لم يعرفوك
محل الأجيال محتاج الى صوتك العالي وان لم يسمعوك

كل ما خرج به (إقبال) من دراساته الواسعة ، ورحلته
التي استغرقت ثلاث سنين ، هو اليقين الكامل بأن الاسلام هو
الخلاص والنجاة للامم الاسلامية بوجه خاص ، والعالم بوجه عام .

وآب من رحلته عام ١٩٠٨ م حاملاً بنور الدعوة الواسعة

التي آمن بها واطعاً الاسس الكاملة ، والقواعد الثابتة لذلك ..
وستتكلم عن ذلك في حينه ، وسرعان ما اعتذر عن كل عمل
رسمي انتدبته الحكومة له ، رغم ما في ذلك من جاه ومال .

ولقد تعمق (إقبال) في دراسته للفكر الهندي والايرواني ،
ونال قسطاً وافراً من منابع التراث الروماني واليوناني قديماً
وحديثاً ، ونهل قدراً وافياً من الثقافة الانجليزية والألمانية
والفرنسية والأمريكية ، هذا فضلاً عن الميراث الفكري الاسلامي
والعربي ، الذي صرف فيه إقبال معظم مجهوداته .

أما اللغات التي أجادها (إقبال) فهي : (الاوردية)
و (الفارسية) ، وقد كتب بها دواوينه وكثيراً من محاضراته
وخطبه ، والانجليزية — وكما قلنا آنفاً — أنه كان مدرّس الفلسفة
واللغة الانجليزية في كلية الحكومة بـ (لاهور) ، كما أنه قام
بالتدريس لفترة قصيرة في جامعة (كمبردج) ، ولقد ألقى
محاضرة باللغة الانجليزية في (دار الشبان المسلمين) بالقاهرة ،
أثناء عودته من مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٣١ م ، ومحاضرة
اخرى في دار (المؤتمر الاسلامي) في القدس ، كما أنه كان
عظيم الإتقان للألمانية والفرنسية ، ولكنه كان يعرف العربية
والسنسكريتية .

هذا هو (إقبال) العالم الدؤوب على الدرس .

(إقبال) الذي اعترف بفضله وعلمه الهندي وغير الهندي ،
فلقد استدعاه ملك الأفغان ، ليستشيره في الاسس التي يجب أن
تقوم عليها جامعة (كابل) المزمع إنشاؤها آنذاك ، واستقبلوه
هناك أعظم استقبال وأروعه ، فلم تنسه روعة الاستقبالات
رسالته الكبيرة ، ولم تفتنه أعلام التقدير ، وزينات الترحيب ،
عن أن يزاول نشاطه ، ويكتب ديوان (مسافر) أثناء هذه
الرحلة .

ولا عجب أن يتغنى بشعره أبناء (الأفغان) ويردده أشبال
(إيران) في لذة وشفق ، ثم يترجمه أحد أبناء (تركيا) ،
لينعم الترك بهذا التراث العظيم ، وهو الدكتور (حسين دانش) ،
الذي كتب عدة مقالات عن ديوان (إقبال) (بيام مشرق)
أي رسالة الشرق .

ومن وراء جبال (الهملايا) ، وخلف التلال والمضاب
يسارع أحد علماء (روسيا) ، متكلفاً المشاق والأهوال ،
راكباً الأخطار والأوعار حتى يلتقي (بإقبال) ، وينقل عنه
مبادئه وأصول فلسفته ، التي أودعها ديوانه : (أسرار خودي) .

أما في (ألمانيا) فقد قام الأستاذ (دايشو روسو) والدكتور

(فيشر) الاستاذ بجامعة (ليبزج) وصاحب مجلة (اسلاميكا) ،
والشاعر الألماني الفيلسوف (هانسي) ، هؤلاء جميعاً ترجموا
(لإقبال) وكتبوا عن شعره وفلسفته ، وقارنوا بينه وبين
(جوته) الشاعر الألماني العظيم و (نيتشه) ، بل قامت هناك
- في ألمانيا - جمعية اسمها (جماعة إقبال) تشرف على ترجمة
آثاره ، ونشر مبادئه في ربوع البلاد وفي أروقة الجامعات .

وهكذا فعل (اسكاريا) في ايطاليا ، و (ميكزري) في
أمريكا ، و (نكلسون) والمستشرق (براون) في إنجلترا ،
والدكتور (عبد الوهاب عزام) في مصر ، إذ كان له الفضل
الأكبر في التعريف (بإقبال) في أرجاء العالم العربي وذلك
بترجمة بعض دواوينه الى العربية ، (كرسالة الشرق) ، و (ضرب
الكلم) ، و (أسرار خودي) ، و (رموز بي خودي) ،
وبالكتابة عنه .



وأخيراً أكان (إقبال) عالماً مجتاً ، وفيلسوفاً صرفاً ، قد
ملأت رأسه الأفكار ، وغطت أرقامه الصفحات فحسب ، أم
كان رجلاً يقول ما يمتد ، ثم يعمل بمقتضى هذا الاعتقاد ؟ .

ان واقع حياته يجيب على كل ذلك ، فيقطع كل شك ، ويديني

كل يقين ، فقد طرد (إقبال) ابنه من بيته لما علم أنه يعاقر
الخمر ، وضحى (إقبال) بالمناصب العالية والمرتببات الضخمة ،
ليتفرغ لرسالته الكبرى ، وآثر أن يعمل في وظيفة مرشد قانوني
حر ، فيقدم المعونة والارشاد لكل محتاج دون مقابل ، وألحوا
عليه في مقاطعة (البنجاب) أن يرشح نفسه عضواً في المجلس
التشريعي هناك ، وأقول ألحوا عليه إلحاحاً فليس (إقبال)
بالذي يتهافت وراء المظاهر ، ويمجري خلف المطامع الفانية ، ثم
تقدم بعد نجاحه بتشريعات تتعلق بالضرائب ، التي يرزح تحت
أعبائها الفقراء والفلاحون ، وبين الظلم الواقع بهم ووجوب
تخليصهم منه .

وتقدم بتشريعات للقضاء على الخمر ، ذلك السم الزعاف .

وأثناء إقامته في أوروبا لم تستهوه البدع أو يخدعه البريق
فينغمس في الشهوات والملاهي .. بل كان يعقد المحاضرات ،
يتحدث فيها عن الاسلام وبنوده العادلة ، وعن اشتراكيته
وسماحته المشرقة وعقيدته الشريفة التي تجعل الانسان لا يمخني
رأسه إلا الله .. وبكى على أطلال الاندلس ومجدها الاسلامي
الفاير ، ودعا الى إنقاذ (فلسطين) من براثن اليهود ،
والاحتراس من الأحيابيل التي ينصبها الاستعمار ، وكان ذلك قبل
أن تحمل بها النكبة الكبرى .

لقد كان (إقبال) عالماً وعاملاً .

وهذا هو مثل الاسلام الأعلى: علم صحيح سليم ، وعمل صادق
لوجه الله لا يعرف اليأس ولا الوهن ، ولقد كان (إقبال) يلفت
النظر دائماً إلى أن الدين إذا لم تترجم مبادئه إلى أعمال ، ونظرياته
إلى وقائع ، فسيكون إذاً فلسفة مجردة ، ولن يكون ديناً أبداً
بأي حال من الأحوال .

فلسفة "إقبال"

لكل فكرة تخطر على بال أي إنسان دوافع !..
ولكل فلسفة تنبع في عقل أي عبقرى بواعث وأسباب .
وكثير من الفلاسفة قد أدخلوا عنصر الإلهام ضمن هذه
البواعث ..

والآن ، ماهي بواعث فلسفة (إقبال) ، والدوافع التي
أشعلت هذه الفلسفة ، فجعلتها ملتهبة كالنار ، حمراء كالدم ،
قوية كالسيول الجارفة ، نابضة بالحياة والحلوى ، ناطقة بالأمل
والتفاؤل ؟ ..

لقد نظر إقبال حوالبه ، فماذا رأى ؟ .
المسلمون يرتعون في بيداء الجهالة ، ويضربون في فيافي الغفلة ،

والإسلام الناصح الحي أصح عنوان الذلة والفقر والضياع :
تلوث عقائده بفعل الكائدين والمخادعين ، وجرى العبث في
شرائعه بفعل المتزمتين ، لذا أصبحوا محكومين بعد أن كانوا
حاكمين ، وأمسوا رعايا مستعبدين بعد أن كانوا سادة أشرافاً ،
وتلفت (إقبال) حائراً وكأني به يقول : إذا فهذا هو الحال
ويا له من مآل تعس .

ترى ما هو الداء الذي نخر في أجساد أمننا وشعوبنا، فأورثنا
سوء المآل ، وذل الحياة ؟. وكان أول داء وقعت عينه عليه هو
أن المسلمين يخافون الموت ، ويحرصون على الحياة بعد أن صاروا
مزقاً وأهواء ، ونحلاً متباينة ...

فلا بد إذاً أن يعودوا إلى (ذاتهم) ، لأنها مصدر الحركة
والعمل ومصدر النور والحياة ، ومركز الإنسانية ومدار الخلود
يجب أن يعود الإنسان إلى (ذاته) يقويها ويدعمها ، وينفي
عنها الخوف والجبن والحرص الغبي ، ويردها إلى الطريق الحق ،
وهكذا آمن (إقبال) (بالفردية) أو (الذاتية) لأنها الأصل
ومنها البداية ، وإهمال (الذات) هو الجهل بأصل الداء ...
ورأس البلاء .

وشيء آخر أدركه (إقبال) .

إن الناس يهابون الحكام ويخافونهم ، وليت الأمر وقف عند

هذا الحد ، لكن هذا الخوف ، وتلك الهيبة أصبحت ضرباً من العبودية المقيتة ، ونوعاً من التآليه السخيف ، فلا يكاد يرتفع صوت باستنكار ، أو تنادي عقيرة باحتجاج ، أو يقف إنسان ليعترض على باطل .. لذلك صار العسف فريضة ، والقانون هوى متبعاً ، والمثل العليا مطية للأغراض والشهوات الجامحة ، فليس عجباً أن تذلل النفوس ، وتصبح أشد طغياناً من الجاهلية الأولى غير أن أوثان الجاهلية الأولى كانت من حجر أو خشب ، أما الأصنام الحديثة فمن لحم ودم ، ويصف (إقبال) هذه الحالة قائلاً :

« ان لأصنام ما زال المسلمون يعبدونها حتى اليوم ، وان ادعوا الإيمان بالله ، وإن لهذه الأصنام صوراً عديدة ، وألواناً شتى .. ويا حبذا لو علم المسلم الذي ينشد الهداية أن سجوده في الصلاة لله وحده ، خير له وأجدى عليه من هذا (الشرك الحديث) .

وأن السجود لله هو الخير والنجاة ، وإن كان ثقيلاً علينا :

تلون في كل ثوب (مناة) (١) وشاب بنو الدهر وهي فتاة
فهذا السجود الذي تجتويه به من ألوف السجود نجاة

(١) مناة : صنم كان يعبد في الجاهلية .

فما معنى كل هذا ؟

لا معنى له إلا أن المسلمين قد شاب عقيدتهم كثير من الفساد والضلال، فشوهت عقيدة التوحيد ، فكان أن اتخذوا من قصور أمراءهم وحكامهم ومستعمرهم معابد يطوفون حولها ، ويحشون بأبوابها ، ويمرغون شرفهم وكرامتهم ومجدهم في ترابها ، كما أنهم قصدوا أضرحة الأولياء ، وأقبية الموتى ، وحشوا إليها المطايا ، وزفوا إليها الركبان ضارعين مستغفرين لذنوبهم ، ولا ذنب إلا خو لهم ، راجين الشفاء والعافية والأرزاق ، والشفاء أقرب اليهم من خيل الوريد .

وتيقن (إقبال) أن المرض الثاني والداء المضال الذي انتاب المسلمين ، هو فساد التوحيد .

أما الشيء الثالث الذي علمه (إقبال) فقد كان مؤلماً حقاً ! .

إن المسلم إذا نظر لهوان حاله ، وضعة قدره ، صدمته الحقيقة المرة وهاله الأمر الواقع ، وبدلاً من أن ينفذ عن كاهله غبار التقاعس والتقاعد ، ويقفز من جديد إلى سلم المجد والكفاح تراه يقول : وماذا أعمل ؟؟ .. ما بيدي حيلة ، هذا قضاء الله وقدره ، وتلك إرادته ومشيئته ، وليس عليّ إلا الرضوخ والاستسلام لأمر الله ، فهل أتمرّد وأثور على سنن الله وإرادته ؟ لا شك أن هذا خيال وسوء أدب ومروق وفسوق !... هكذا

يقول المسلم لنفسه دون أن يأخذ للأمر عدته ، ويصاول الحياة ويصارعها ، كي هيزم صماها ، ويتغلب على عقباتها ، حتى يصل إلى المرتبة التي أرادها الله له .

وفكر (إقبال) في هذا الداء الجديد ، أو الداء الثالث ، وبعد أن فهم أعراضه ومضاعفاته شخّصه قائلاً : إن هذا هو التواكل .. فالمسلمون ينسون أن لهم إرادة مضمونها الحرية والاختيار لا الجبر والقهر والإرغام ، وأن الانسان غير لا مسير ..!

وإذا شئت أن ترى كيف عرض (إقبال) هذه الصورة في حوار شعري بديع أخذه عن (محيي الدين بن عربي) ، فانظر هذه القصيدة التي يدور فيها الحوار بين (الله) سبحانه وتعالى ، وبين (إبليس) في حضور الملائكة .

إن (إبليس) يظهر أولاً بإيمانه بوحدانية الله وقدرته ، ثم ينفي عن نفسه الكبر والمروق ويقول : يا رب إنني لم أسجد لآدم إلا لأنك كتبت في علم غيبك أنني لن أسجد فما ذنبي ؟ .. فيرد عليه الخالق سبحانه بما يفحمه ويربكه فيقول سبحانه : هل عرفت ذلك الأمر وهذا القدر المكتوب قبل أن تعصى أم بعد المصيان ؟ فلا يسع إبليس إلا الإقرار بجرمه ، والاعتراف بذنبه ، وأنه ليس بريئاً من تحمل المسؤولية ، وها هي ذي القطعة شعراً كما ترجمها (الدكتور عزام) :

إبليس : يا إلهاً أمره كن
ليس عنه من محيد
ويل غر من زمان
ومكان في حدود
كيف أستكبر عن
أمرك أو كيف أحيّد؟
كان في علك أني
حائد عن ذا السجود

الحالقي : هل عرفت السر هذا
قبل أو بعد الجحود؟

إبليس : بعد ، يا من تجلّد
كالمات الوجود

الحالقي : (ناظراً الى الملائكة)

خسه الفطرة فيه علمته ذلك عنذر
قال : ما شئت سجودي أنا لا أملك أمرا
ذلك الظالم سمي اختياراً فيه جبرا
انه سمي رماداً شعلة فيه وجرا

و (إقبال) الذي أراد أن يكون طليعة إيقاظ ، ورسول
بعث تأثير في هذه الامة قد هاله أمر عظيم وموضوع ذو خطر ،
هو أن المسلمين ينظرون إلى ما يعترضهم من آلام ، ويكتنف
حياتهم من نكبات ، ينظرون الى ذلك كله على أنه عنوان للحفظ
المنحوس ، وسوء الطالع ، ويحسبون أن الحياة السهلة الهينة ،
والنعمة السخية الوفيرة هي الدليل الأوحى على رضى الله وحبه
لعبده ، ورحمته به .. لقد أغض المسلمون أعينهم عن منابع
دينهم الاولى ، ونسوا أن الله قد يختار أقواماً ، لابتلائه ، حتى

يرى ماذا سيكون من شأنهم حينما تدلهم الخطوب وتبلغ القلوب
الحناجر ، ونسوا أن المؤمن الحق يشكر النعماء ، ويحمد الله على
الضراء ويصبر عليها ، ويظل يعمل ، ويكافح حتى يخرج من
محنته ، وقد ازداد معدنه نفاسة ، وجوهره قيمة وقدرأ .

وهذا هو الداء الرابع .. فالمسلمون يستنكفون من الحياة
التي يهزها الكفاح ويملؤها النضال ، ويهربون من تحمل الصعاب
والآلام ، وينشدون السكون والدعة ولو عاشوا في أكناف
العبودية وخمول الذكر ، حتى لكأن الحياة لقمة سائفة ، وقنطرة
سهلة ميسورة .

أما الداء التالي فقد كان لا يقل خطورة وأهمية عما قد سلف
من أمراض .. ففي هذه الظروف المعصيبة وجدت فئة من
الناس أدركت الهاوية السحيقة التي تدهور إليها مستقبل الأمة ،
فهاهم ما رأوا وأتعسهم ما جد من امور ، وكان الظن بهم أن
يمدوا الى هؤلاء المترددين أسباب النجاة كي يأخذوا بناصرهم ،
وينقذوهم من بؤرة الشقاء ، لكنهم كانوا على عكس ذلك تماماً ،
فقد انقسموا قسمين :

القسم الأول :

راوده اليأس القاسي ، فلم يجحد مناصاً من أن يسد أذنيه
بأصابه ، حتى لا يصل إلى سممه نداءات الضائعين ، واستغاثات
المهائين على وجوههم في أودية الأسي ، ويا لها من جريمة ..

والقسم الثاني :

قبع في الصوامع ، وودع العمران والسكن ، وعاش يعبس
الله راهباً قاتناً لله ... ونأى بنفسه عن مهاترات الدنيا ومطارك
الحياة ، وقنع بخلوته الضيقة عن العالم الرحيب ، وأغمض عينيه
عن أضوائه البرّاقة المضطربة التي لا تعرف الثبات والهدوء !..

وأمسك (إقبال) بقلمه ليسطر التشخيص للداء الخامس
(اليأس والرهنبة) .

ولم صرخ (إقبال) في هؤلاء الواهين ذوي الآفاق الضيقة ،
كي يعلمهم أن من لم يذق طعم الآلام لا يستسيخ حلاوة الراحة ،
ومن لا يتمرغ في أعطاف الصراع والكفاح لا يدري جلال السلام
والحرية ، ومن لا يتناول جرعات من الشقاء لا يدرك جمال
السعادة ، لهذا نراه يقول :

إن حباب خمرة الآمال لا يرقص إلا فوق أمواج الألم
والله في حكته علينا أن انشراح الصدر قبله ألم



آلما إلى الملا أجنحة نعلوها فوق مطارات النور
الروح سر والحياة ظلمة وشعلة الآلام للأرواح نور

هذا بعض ما قال (إقبال) في أولئك الذين ضاقوا ذرعاً

بالآلام وتكاليف الكفاح ، واعتبروهما لعنة سماوية ، وغضبة
من الله قد انصبّت عليهم ، أما أولئك اليائسون الذين فقدوا
الأمل ، وأماتوا الرجاء ... فقد قذفهم (إقبال) بأمثال السهام
الفتاكة حين قال ما ترجمته :

منحت القلوب هيأماً جديداً أثرت البعيد به والقريب
ولكن خلقت بأرض بها نفوس العبيد برق تطيب

وشهر سيف القول في وجه هؤلاء اللاتذنين في حمى الصوامع
والكهوف والخلوات ، وكأنه يقول لهم لا تفرّوا من المعركة ،
ولا تهربوا من الحياة التي خلقت لها وخلقت لكم ، فتراه يقول :

خلا الصوفي من حرق وكد شراب (ألست) معذرة البطالة^(١)
وفر إلى ترهبه فقير يرى في الشرع معترك البسالة
إذا خشي الرجال وغى حياة فتلك هي الهزيمة لا محالة ..

(فالصوفي) الذي قواكل محتجاً بالآية « ألست بربكم ... »
و (الفقيه) الذي ودع الحياة إلى دنيا الصوامع والعزلة ، كلاهما
هرب من الميدان ، وأشفق من تكاليف الجهاد ، فدعنا
الاستعمار ، واستغلنا الحكام ، ولم يكن لنا أن نجني غير
الهزيمة ..

(١) يقصد آية : « ألست بربكم ... الخ » والمعنى أن الكسالى يلقون
بأحلامهم على الله ويلوذون بالحمول .

وكان خاتمة المطاف ، وآية البلاء ، وشر الداء تلك النزعة العاتية المجنونة التي تتجه ناحية الغرب وثقافته وحضارته دون فحص او تمحيص ، ومطالبة الناس بالأخذ بها دون قيد او شرط غير مراعين في ذلك ظروف البيئة ، والأحوال الاجتماعية ، والتقاليد المرعية ، والمعتقدات الدينية ، ودون النظر إلى التراث المحلي الذي تناقلته الأجيال في شتى ضروبه وألوانه ومظاهره ، فانبثت تيارات الإلحاد والزندقة ، وشاعت موجات الانحلال وعدم التقيد بشيء من القيم التي توارثوها ، وظنوا أن كل ما أتى به الغرب جميل نافع سواء في النواحي المادية وغير المادية ، ولم يدققوا في وسائل الحضارة الغربية ولا أهدافها ، او الركائز التي تعتمد عليها ، لأن الشعوب كانت جائعة إلى هذا المتاع المادي .. والرقى العلمي والترف الظاهر بعد أن أنهكها الفقر ، وحطمتها الحاجة ، وأهشها الطغيان والفساد ، وآلمها الجلود والرجمية ، فكان أن اندفعت هذا الاندفاع الأرعن ، وانسأقت هذا الانسياق الأعمى .. وأوشكت أن تنسى أن للروح مطالب كما أن للجسد رغبات .

رأى (إقبال) ذلك وهو الشاعر المؤمن ، والفيلسوف الدارس ، والعالم العامل الذي جاب أنحاء أوروبا ، وارتاد جامعاتها ومنتدياتها ، ودرس تاريخها وقوانينها ومكتشفاتها ومفاسدها ومفاخرها ، فرفع (إقبال) يده عالياً في وجوه الحشود المحقاء ، التي أسلمت قيادها للغربيين دون قيد او شرط ،

وقال الكثير من شعره في ذلك الموضوع وخلصته أن سلامة العالم
ورفاهته يتوقفان على .. التوفيق بين حضارة الغرب والشرق ،
وحضارة الشرق تبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ، ولا تنسى
نصيبتها من الدنيا ، وتوافق بين العاطفة والعقل ، والوحي والعلم ،
والمادة والروح ، وهاك قطعة مترجمة من شعره في منظومة
(جاويدنامه) تظهر هذا المعنى :

« في الغرب العقل مصدر الحياة

وفي الشرق (العاطفة) قوام الحياة

وبواسطة الحب (العاطفة) يحيط العقل بالحقائق

فيعزز شغل الحب .. انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد

بالتوفيق بين العقل والعاطفة

... الخ ... » .



وضع (إقبال) هذه الأدواء الستة أمام عينيه ...
وفكّر (إقبال) .. فكّر كثيراً في الحياة وكنهها ، وفي
مقاييس الهزيمة والنصر ومعايير القيم والمثل العليا ، وفي الخلود
وحقيقته ، وكان غاية تفكيره وبخه إيجاد عالم رشيد ، وإنسانية
مترابطة حانية وحياة رحية سعيدة ، وجال ببصره عبر الأجيال

وحقب التاريخ ، حيث رأى الاسلام .. الرسالة الخالدة بين المد
والجزر ، وبين الارتفاع والانخفاض ، ثم تلفت إلى العالم الغربي الذي
ساد وشاد وحارب وملك بعد أن سفك الدماء وأهدر المثل ، فهز
إقبال رأسه ، وهو موقن أن البداية يجب أن تكون من الإنسان نفسه ،
من (ذاته) ... ذاته القوية التي لا تتيه في الآفاق ، ولكن
الآفاق هي التي تتيه فيها لأن كل ما خلق في هذا العالم مسخر
لتلك الذات القوية النامية :

إنما الكافر حيرا ن له الآفاق تيه (١)
وأرى المؤمن كونا تاهت الآفاق فيه

ولقد جعل (إقبال) بداية فلسفته ، ونهايتها : الإيمان بالله ،
واتخذه أساسا .

وبعد هذا العرض السريع لبواعث فلسفة (إقبال) ، ما هي
إذا هذه الفلسفة ؟

وسأجيب عن هذا السؤال في حذر واقتصاد ، وإيجاز بعيد
عن التعقيد والمصطلحات العظيمة ، لأننا الآن بصدد الكلام عن
شعر (إقبال) وفلسفته من ناحية معينة ، ومن زاوية خاصة

(١) مأخوذة عن (ابن عربي) ، فقد قيل أن مرضعة الرسول لما فقدته
لعبها جبريل وقال لها : « لا تحشي عليه أن يتيه في الآفاق ، فهذه الآفاق
تتبه فيه » .

تتعلق بمرحلة البعث الكبرى ، التي اهتمت لها جنابات الهند
وتغير بها مصيرها .

وخلاصة فلسفته أنها إسلامية ، وتحمل في ذراتها طاقة
البعث لهذه الأمة الراكدة ، وأضواء الاستكشاف وأشعة المعرفة
التي تزيل الظلمات والغياب ، الناسجة خيوطها حول هذه الملة
الملة البيضاء .



هناك فريق من الصوفيين يؤمنون بوحدة الوجود ، ويرون
أن الفردية وهم وعبث وأتانية وغرور ، وليس لها وجود حقيقي
على ظهر البسيطة ، بل الحقيقة أن الكائنات وحدة واحدة
مرتبطة ، لهذا فهم يرون أن غاية الإنسان الاندماج الكلي في
الوجود ، كما تندمج القطرة الضئيلة في البحر الحضم الواسع ، أو
الذرة المتناهية الصغر في كتبان الرمل العريضة الهائلة ، ومن هنا
كان مذهب الفناء في الله كما يفنى الشعاع الواهي الضعيف ، في
دنيا لا نهاية لها من الأضواء والأنوار .

وكذلك آمن أصحاب مذهب الفيلسوف (هيغل) بنظرية
الوحدة هذه أعمق الإيمان .

وقف (إقبال) إزاء هؤلاء وهؤلاء وغيرهم ، وقال :

« لا ... بل هذا الزعم هو عين الومم وعين الخيال
والضياح » .

« إن هذا الظن مدعاة لذوبان (الشخصية) وانهيار (الذات) ،
وخمود الحياة وخمولها ، وأساس للضعف والوهن ، والأرزاء التي
اجتاحت الأمة وبدلت حالها .

« إن كل إنسان له كيان ووجود وشخصية قائمة بذاتها ،
وميزة عن غيرها تميزاً جلياً واضحاً .

« ألا ترون أن الله واحد وإن اتصف بكل كمال وتنزه عن
كل وصف ؟

« ألا ترون أن الكائنات - أي هذا الوجود الكبير بما فيه -
مجموعة من الفرديات المتباينة ذات الخصائص المعينة ، فهنا
أشجار ونبات ، وهناك طيور وحيوانات ، والأشجار فيها الخوخ
والحنطة والصفصاف ، بل إن النوع الواحد تختلف أفراده في
صفاتنا ... أنظروا إلى الإنسان - هذا أسود وذاك أصفر ، وهذا
سقيم وذاك سليم ! .

ورغم أن لكل إنسان - أو كائن - شخصيته وذاته إلا أن
بين هذه الوحدات أو الفرديات نوعاً من التوافق ، وضرباً من
التطابق ، وشيئاً من النسق والنظم ، ولا شك أن سعينا الفردي
وكفاحنا الفطري يجعلنا دائماً نتقدم إلى الأمام ، وينقلنا تدريجياً

من الفوضى إلى النظام ، أو بمعنى آخر يخلق بيننا ذلك التوافق
وذلك التطابق وذلك النسق والنظم .

« ونحن دائماً في حاجة إلى الكفاح والسمي المتصل ونحن في
طريقنا إلى الكمال المنشود والمثل العليا المرسومة ، وهذا السمي
وهذا الكفاح هما عمل الكائنات ، وعمل الأجيال المتلاحقة ،
وكل جيل عبارة عن حلقة من حلقات نضالنا في سبيل الوصول
للكمال ، فعمل الكائنات إذاً مستمر متصل « لا متناه » -
فالكائنات إذاً حقيقة غير كاملة .. « فأنا وأنت لبنة مميزة في بناء
الوجود الكبير ، وكل لبنة تتعاون مع أختها ، وتبذل قصارى
جهدا وطاقتها ، حتى يظل البناء شامخاً قوياً لا يتزعزع ولا يرتج
بل يكون دائماً في ازدياد مطرد من حيث القوة والمتانة ، ومن
حسن السمو والارتفاع .

أنا فرد ذو شخصية مميزة .

وأنت فرد كذلك بذاتك الخاصة .

والغير كذلك .

لكننا نتعاون ونتضامن ونصافح كي تقوى ذات كل منا ، لكي
يسعد الكون وترتقي الإنسانية ، ويصل إلى درجة الكمال
الأسمي ، ومن هنا سميت فلسفة (إقبال) بفلسفة الذات أو
(خودي) .

ولقد ضرب لنا (إقبال) مثلاً عن الفرد، وعن كيفية سلوكه
مع المجموع :

ومن الحشد طليقتي	هو في الجمع خال
وحيد ورفيقتي	مثل شمع الحفل في الحفل
فيه نور وبريقتي	مثل شمس الصبح، فكر
لكن المعنى دقيقتي	لفظه حر يسير
عن بني العصر سحقتي	نظر فيه سديد

إنه وإن كان في مجمع من الناس ، إلا أنه متميز بثاقب فكره ،
وحدة نظره ، وحرية في قول الحق والعدل ، مثل الشمعة التي تميزت
بنورها وثارها ، وإن كانت رفيقة الجميع ، وفي خضم هذا الحفل
الحاشد . فما تعريف الذات او (خودي) عند (إقبال) ؟ .

هي حالة من الجهاد المتصل ، والتوتر النفسي ، والكفاح
المستمر ، وكل ما يطفئ فيها شعلة الحماس للعمل ، ويخمد فيها
نورة التوثب ، للنضال والسمو ، فهو قبيح مردول ، أما الذي
يقويها وينميها ويدفعها دفماً إلى الأمام ويقربها إلى الغاية ، ويحفظ
عليها حالة التوتر فهو جميل محبوب ، ولأزيد القارئ إيضاحاً
أقول : إن الحياة إذا خلت من الاجتهاد والعمل والحركة فهي
موت وفناء ، ولو كانت الحياة مجردة من الرغبة والعمل ، فماذا
يمكن أن يبقى فيها ليشوقنا إليها ؟ .. هل يكون هناك من معنى
او حكمة لتلك الكنوز من المعادن الثمينة تحت الارض في الطين

والتراب ، والتي تحتاج الى الحفر والجلد ، كي نستخرجها ؟.

لا خير في حياة نقضها في صمت وجمود .

ولهذا قال (إقبال) :

« إن الذات تقوى بتوليد المقاصد ، وإيجاد الرغبات وخلق
الأماني ، فإذا ما كان للإنسان غاية يسعى إليها ، فلا شك أنه
سيجد ويتمتع للوصول إليها ، ولا بد له أن يتغلب على ما يعترضه
من عقبات ، وما يدهمه من صعاب ، ويعالج أمرها بما أوتي من
قوة ، وصادق عشق^(١) ، لأن الغاية جميلة^(٢) وتهون إزاءها كل
الصعاب والآلام .

أما (شوبنهاور) الفيلسوف الغربي فقد رأى أن الحياة
نهايتها الموت ، وأنها طمع وجشع ، والإنسان لا تقف آماله عند
حد ، انه جائع دائماً ظامئاً دائماً ، وطموح دائماً ، يتوق الى
المجد ، ويتشوق للتسلط والسيطرة ، وماذا بعد ذلك ؟ .. إما
أن يثوب بالحسرة والفضل ، فيسخط ويلعن سوء الحظ ، وفساد
الطالع ، وقسوة الأقدار ، أما اذا نال شيئاً ، وحقق أمنيته ،
فلن يستمتع بها أكثر من أيام او سنوات معدودة ، او عمراً
قصيراً ، ثم يعقب ذلك قبر يفقر فاه ليلتهم الفريسة ويحطم

(١-٢) ستكلم عن العشق والغاية فيما بعد .

كيانها ويسحق عظامها ، ويمتص دماءها ، وكان لم تكن شيئاً..
لكن (إقبال) ثار على زعمهم هذا ، وكأني به يقول لهم :

« ويحكم ..! أمن المعقول أن يخلقنا الله عبثاً؟ .. أمن المعقول
أن تظل الشمس والسموات والأرض مدى الدهر وطول الأبد ،
ثم نندثر نحن بهذه السرعة فلا تقوم لنا قائمة بعد ذلك ؟.

كلا ، ان الخالق سخّر لنا الكواكب والشمس والقمر ومختلف
الكائنات ، وسخّر القوى المادية لتتوسل بها الى ما نريد ،
ونتخذها مراكباً يسرع بنا نحو الغاية. اذا كان هذا العمر الطويل
من نصيب هذا الاكوان المسخرة لنا فما بالك بنا - ونحن أشرف
قدراً ، وأعلى منزلة منها. - أنمضي هكذا سريعاً ونودع الحياة
الى غير رجعة ؟ .. ليس هذا صحيحاً !.

هناك شيء اسمه الخلود .

أجل ، الخلود .

فنحن أسمى من أن تكون حياتنا ومضة زمنية قصيرة لا رجعة
لها ، ونحن أيضاً أعظم من أن ندوب ونناع في بحر الوجود
المريض .

وما الموت إلا البرزخ الذي نتخطاه إلى عالم الخلود ، وما
القبر إلا الزورق الصغير الذي يحملنا إلى شاطئ السلام الأخضر

الأبدى ، فالجسم قد يبلى أو قد يموت ، إلا أن (الذات) تأبى
المات ، وترفض الفناء ، لأنها خالدة :

إن صانت الذات المتينة نفسها
أعيت على الأيام كل ممات

ولقد وصف (إقبال) عقيدته تلك وعقيدة (أفلاطون)
- التي تشبه عقيدة (شوبنهاور) - فقال :

أفلاطون : يبصر الموت عاقل ، فحياة
كشرار يمنح ليل يشب
إقبال : ما إلى الموت والحياة التفات
مقصد (الذات) رؤية الذات حسب

إن (أفلاطون) يرى الحياة كالشرارة الخافقة في جنح الظلام ،
سرعان ما تلفها أكفان العدم ، أما (إقبال) فلا يلتفت إلى حياة
أو موت ، بل جل همه أن تقوى ذاته ، وتظل في مدارج سموها
ورقيها حتى تحظى برؤية الذات المتكاملة المنزهة ، التي لا شبيه
لها ، ألا وهي الذات الإلهية : ففي ظلالها يرفرف الخلود ،
وتقف الغايات والآمال ، ولذلك يقول (إقبال) :

« غص في البحر ، وحارب الأمواج ، فإن خلود الحياة في
الكفاح » .

ثم يضرب (إقبال) عشرات الأمثلة التي ينتزعاها من الطبيعة التي أحبها، ليدللك على قضية الخلود، فيقول: إن انطفاء النجوم بشير بانبلاج الصبح، وتبديد الظلام، مثل موتنا الذي تمعبه الحياة الخالدة، وانتهاء عهد البراعم بداية لعمر الزهر:

فناء (ملايين) النجوم مبشر
بأضواء شمس في السماوات تولد
وفوم الردى سكر سيعقب نشوة
بجمر حياة في الخلود تجدد



وتوديع أيام البراعم مؤذن
بخلق الزهور الباسمات جلالا
ومصنع هذا الكون بالخلق دائر
فلأني أرى فيه السكون محالا
وليس سوى التغيير في الكون ثابت
يفير حالا ثم ينشوء حالا

إن البذرة يدفنونها في ظلمات الأرض وقبر التراب، فهل تراها ماتت، وغشاها البلى؟... وهل انطفأت نيران حياتها، مع طول بقائها في ظلمات الأرض؟... كلا.. لقد ألفت عن كاهلها ثقل الموت، واستعادت حياتها من جديد، وتوشحت بأجل الأبراد، وأحلى الأثواب، وخلقت من موتها حياة جديدة:

لقد دفنوا في التراب البذورا
فلم تنف في لحدها الهامد
ولم تنطفئ نارها في الحياة
على طول مرقدتها البارد



لقد نسجت للحياة القباء
وصاغت من الزهر أبهى حلاه
نما غصنها زاهراً واستعادت
من الموت تجديد ذوق الحياة



وإذا كان للخلائق نامو
من يرينا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن
بعد ليل الحمام صبح البقاء !

إن من يظن ان تلك الحياة أيام معدودة، لن يكثر بمبودية
او حرية ، بل سيقبل الحياة على علاتها ، اذ كل هم أن تمر مروراً
وتندثر اندثاراً ، ما دامت بلا غاية ولا فائدة ترجى من ورائها ،
فكان لزاماً على (إقبال) أن يخنق تلك التيارات القاتلة القدرة
في مهدها ، فأخذ العدة لذلك وتهاى بالسلاح الا وهو فلسفته

الخالدة) فلسفة الذات) التي ذكرها في ديوانه (أسرار الذات) .

ثم ماذا يقصد (إقبال) بكلمة العشق ، التي تتردد كثيراً في شعره ؟ .

يقول (الأستاذ أبو النصر الهندي) :

« ان العشق في مفهومه المطلق هو الشيء الذي يقوي الذات وينميها ، ويدفعها إلى الكمال الخالد ، والعشق معناه جذبك الشيء او طلبك إياه ، لتجعله جزءاً من نفسك ، وأسمى صور هذا العشق واعلاها وافخمها هو توليد المقاصد ، هو خلق القيم والغايات ثم العمل على تحقيق هذه المقاصد والآمال . ١ .

ولقد دلت (إقبال) على أن هذا العشق بمفهومه الحق يدعنا نؤمن أيضاً بمذهبه في (الفردية) ، لأنه يعتقد ان العشق يجعل الطالب فريداً والمطلوب فريداً أيضاً ، فكيف ذلك ؟ . إنك إذا طلبت او عشقت شيئاً وتمنيت به فإن غيره لا يرضيك ولا يروي غلتك ، لذلك فإن ما تطلبه وتقصده فهو فريد في ذاته — مثلك تماماً — إذ ان غيره لن يقوم مقامه في اشباعك وارضائك .

فالعشق — كما هنا سابقاً — يقوي الذات ، والاستجداء يضعفها ، ويهرق ماء حيويتها وكيانها ! .

انه وقود يثير الحركة والتدفق والتدفق ، ويشعل الحماس

ويؤجج العاطفة . وهو الطاقة التي اذا انطلقت لم تعقها السدود
ولا القيود ، لأن الذات العاشقة فوق الزمان والمكان ، وهي القدر
وهي القضاء ، فاستمع الى (إقبال) وهو يتحدث عن معراج
الرسول ، فيقول :

« ان الذرة الضئيلة الهزيلة اذا سرى في كيائها الشوق لاقت
الصقر القوي الجسور ، ساخرة منه هازئة بقوته ، فيفرّ من
أمامها ، ولا عجب في ذلك ، فإن الحماس قد قلب أنفاسها
الوادعة إلى شرر متقد ، وهكذا المسلم الحق إذا ما اعتمى بالشوق
والعشق وكانت له غايات ومقاصد أصبح كالسهم المنطلق الذي
تسمو غايته عن التوافه والصغائر ، فهي غاية لا شبيه لها غير
الكواكب ، في علوها ، وفي المعراج أسرار هذا العشق ، ومغزى
قوة الروح العاشقة :

وذرة طار فيها الشوق صاعدة
تغير في عرصات الشمس والقمر
يارفقة المرج . . تلقى الصقر مقدمة
دراجة تملأ الأنفاس من شرر
المسلم السهم والأفلاك غايته
سرائر الروح في المعراج فادكر

إن الإنسان — بعاطفته الممزوجة بالعشق ، وبقلبه المملوء

بالشوق - يرى ما لا تراه العين الجردة ، ويدرك ما لا تدرك
الحواس الظاهرة .

والمشوق هو الذي يثير الرغبة في الكائنات ، ويوقظ فيها
جرة الحياة ، فتحس بنعمتها وجمالها وروعيتها ، وغاية المشوق
تقوية الذات ورفقيها ، والسير بها قدماً نحو الحرية والكمال الخالد ،
وغاية العلم أن يبرز لنا قليلاً من الصفات التي قد لا تثبت على
حال ولا يستقر لها قرار ، لأن العلم محض تساؤل حائر ، وفي
شك دائم ، ولكن المشوق جواب رائع لاستفساراتنا وتساؤلنا ،
حقاً إنه جواب خافٍ على بعض المفرورين والمخدوعين والنائمين ،
لكن تدركه القلوب الواعية ، والأرواح المتوثبة الذكية .

ألا ما أروع المشوق وأحلاه !... ألا يكفي أن تكون
معمزته ملكاً خالداً ، وسلطاناً سامقاً تمنوله الكائنات ؟...
ولا أدل على يزوغ هذا الملك ورسوخه من ذلك الفقر^(١) الفقي ،
وهذا الدين - دين الله - الذي يسبغ الحب والسعادة على
الوجود .

لقد علمنا المشوق أن الرضوخ للراحة والاستسلام في جوف
المنازل وعلى الفراش الوثير ، علمنا أن ذلك في شرعته حرام ..
وعلمنا أيضاً أن ركوب الأهوال وامتناء الأخطار واقتحام

(١) ستكلم عن معنى الفقر في شعر (إقبال) فيما بعد .

الصعاب ، ومغالبة أمواج البحر ومصارعتها ، هي الحلال في سنتنا ، الواجبة في شريعتنا ، وما عدا ذلك : من راحة وإخلاق للهدوء والسكون ، فهو ضعف ، ووهن لا يرضاه الله ، ولا تقره شريعتنا الغراء :

قال لي العلم غروراً « إنما العشق جنون »
قال لي العشق مجيباً « إنما العلم ظنين »
لا تكن سوس كتاب يا أسيراً للظنون

فمن العشق شهود
ومن العلم حجاب

من هيب العشق ثارت ثورة في الكائنات
وشهود الذات للعشق حق ، وللعلم الصفات
ومن العشق ثبات وحياة وممات

علمنا سؤل جلي
عشقنا خافي الجواب

معجزات العشق ملك زانه فقر (١) ودين
وعبيد العشق أدنام له عرش مكين

(١) انظر (١) في ص ٥٨ .

ومن العشق زمان ومكان و (مكنين) (١)

إنما العشق يقين
وبه يفتح باب

إلفة المنزل في شرع من الحب حرام
خطر البحر حلال راحة السرب حرام
خفقة البرق حلال وفرة الحب حرام

علمنا نسل كتاب
عشقنا أم الكتاب

ويلاحظ أن (إقبال) لم يعمط العلم حقه بل أثبت له فائدته العظيمة ، وجدواه التي لا نستطيع أن ننكرها ، وليس هذا بغريب من (إقبال) الذي كان عالماً كبيراً وفيلسوفاً مقداماً ، غير أنه أراد لهذا العلم الكافر أن يعلن إيمانه بالله ، ويسير جنباً إلى جنب مع العشق أو الإلهام فيسعد كل منها بجوار الآخر ، ويسعد العالم من جراء ذلك الثمام . فالعلم وحده مذل كافر مغرور لا غنى له عن الدين ، كي يكبح جماحه ، ولا غنى له عن العاطفة الطيبة كي ترقق حاشيته ، فإذا كان مع هذا العلم عشق

(١) هو من يحل في المكان ، وهو لا يستعمل في اللغة العربية كثيراً .

وإيمان وقلب فسينتج من هذا كله (إبراهيم) جديد يحطم (أصنام)
الضلال والفسوق والعصيان .

العلم إن لم يصف نجوى الكليم إلى
رأي الحكيم فما للعلم من قدر

لكن كيف يوجد العشق ؟

إن ذلك يكون - كما قال (إقبال) - بحبنا النبي ﷺ ،
لأن محمداً كانت سيرته وأخلاقه المثل الأعلى ، وكان بأقواله
وأعماله الإنسان الكامل مع الحرب والسلام ، مع الأصدقاء
والأعداء ، وبمعنى آخر كانت أخلاقه القرآن ، ومتى فهم الإنسان
هذا الفهم عن (محمد) ﷺ ، ووعى كنه رسالته التوحيدية
السامية ، ثم أتبع الفهم والوعي بعشق صاحب هذه الأفضال
والميزات ، فقد علم مدى العشق ومعناه عند (إقبال) .

ولا شك أن حبك لحمد ، وعشقك إياه ، سيدفعك حتماً إلى
السير في طريقه ، واقتفاء أثره في حياتك ، وهذا هو الهدف .
ويقول (إقبال) في ذلك :

« كل من يكون متعاه عشق (المصطفى) ، يكون البر
والبحر في طرف ذيله » ...

ولفلسفه (إقبال) مراحل ثلاث :

هذه المراحل الثلاث يجب أن يمر بها الإنسان حتى يصل إلى
الغاية التي كان (إقبال) ينشدها وهي خلافة الله في الأرض .

المرحلة الاولى : التي يجب أن تمر بها (الذات) هي خلق
المقاصد ، وتوليد الرغبات .. وهذه هي صفة الحياة والدافع
اليها ، فالحياة بلا هدف ركود وموت ، ويقول الاستاذ (أحمد
برويز) صاحب (معارف القرآن) في هذا الصدد أن من يتدبر
القرآن الكريم ، يبدو له جلياً أن الاسلام عبارة عن نظام حياة
يسمى ديناً .

فقد بين القرآن للحياة الانسانية مقاصد ، وحدّ حدوداً ،
وجعل للانسان الاختيار والاجتهاد ، غير متعد هذه الحدود
وهذه المقاصد ، والحدود لا تتبدل فهي حقائق أبدية ، وقم
للحياة خالدة .

فالحياة إذا آمال متفتحة نابضة ، وغايات نبيلة سامية .

أما المرحلة الثانية لتطور الذات وارتقاءها فهي مرحلة النضال
المستمر والكفاح المتصل ، أو الجهاد الذي لا يني .. لماذا ؟ ..
لتحقيق الغايات والأهداف والمقاصد ، التي تحدثنا عنها في المرحلة
الاولى .. فلن تموت أمة - او فرد - إذا ما اعتصمت بالكفاح
والصبر ، ولن يهلك شعب إذا ما تسلح بالجد والمثابرة ، ولن تبلى
حضارة اذا ما تحصنت بالعمل الحصيب المنتج والروح القوية

الملتبهة .. وعلى الانسان أن يسخر الكائنات المادية الطبيعية ،
كي تساعده في كفاحه هذا ، وأن يتخذ منها وسائل ومركبات
ليستعين بها على العقبات والمشاق ، فما هذه الأكوان ، إلا من
أجل الانسان وخدمته ، وما هذه العوالم المادية إلا رهن مشيئته ،
لهذا يقول (إقبال) :

الأرض لا تخفي حقيقة جوهرى
أنا مقصد التقدير فى الأكوان
وحقيقى نور فىالى ساجماً
فى لجة الظلمات والأشجان

أنا أمة فىما أريد لأمتى
وولايتى دنيا من الأجيال
وأرى بمنظار الحقيقة كل ما
يبديه فى الحق الصريح خيالى

فاخلق لروحك من زئيرك نشوة
فى المجد ترهب فى العرين اسودا
واجمل نشيدك قول ربك (لا تخف)
حتى يهاب البرق منك رعودا

والعشق أو الهيام ، هو وقود هذه المرحلة الهامة .

ولقد شرط إقبال هذه المرحلة بثلاثة شروط : لكل شرط منها مغزاه ومعناه في تقوية الذات وتربيتها ، ومن المفيد أن نذكر هذه الشروط الثلاثة ، قبل أن ننتقل إلى المرحلة الثالثة :

(أ) الشرط الأول : هو الإطاعة والإنقياد لأوامر الله سبحانه ، والعمل على تنفيذ ما أمر به ، والإنتهاء عما نهى عنه ، لأنه هو الخالق الأعظم ، الذي يدري كنه تكويننا ، وسر خلقنا ، ودقائق طبيعتنا ، وخفايا سلوكنا ومشاعرنا وعواطفنا .. ثم أنه - جل وعلا - العليم بما ينفعنا والبصير بما يضرنا والحكيم الذي لا يخطئ في تقدير ... وشتان بين قدرة الخلق الضعيف الواهي وعظمة الخالق القوي الجبار ! .

ولا شك أن طاعة الإنسان لربه إذا كانت عن عقيدة ثابتة وإيمان راسخ فهي تملأ القلب سعادة ونوراً ، وتغمره حيوية وإشراقاً مما يسهل عليه تكاليف هذه المرحلة ونفقاتها - مرحلة الكفاح والنضال .

فلو تصورنا مجتمعنا شأن كل أفراده طاعة الله ، والعمل في حدود شرائعه وأحكامه ، فسنجد أن مثل هذا المجتمع لن يحدث فيه تصادم المنافع الخاصة وتصارع المكاسب الفردية ، بل سيكون مجتمعاً متفاهماً متوائماً .. يعيش في ظل المودة والسلام ، ويستمرى الكفاح والنضال ! .

(ب) الشرط الثاني : هو ضبط النفس وهو وثيق الصلة بالشرط الأول ... إن النفس لها نوازع وأغراض ، وتحتدم فيها مشاعر ومطالب وتعمل فيها شهوات ورغبات ، فلو أطلق لها العنان فسارت بلا كبح يكبحها ، أو منظم ينظمها وينسقها ، كانت النتيجة الحتمية شراء وبلاء ! .

لهذا كان من الضروري أن يوضع لهذه النفس الحدود التي تلتزمها الجادة ، والرياضة التي تعودها على السلوك المستحب ، والنظام المرغوب فيه ، وليس هذا معناه كبت الفرائز ، والحكم بالإعدام على الطبايع الفطرية .. وإنما المقصود من ذلك تهذيبها ، أو اخراجها في ثوب لائق ، و ابرازها بطريقة منظمة مشروعة والمحافظة عليها وتوجيهها الوجهة السليمة التي تدفع إلى الأمام دائماً فتساعد ولا تعوق ، وتسمو ولا تنحط ! .

بهذا يتم التعادل والتوازن على وجه ما ، في تلك الذات التي يحتشد فيها كثير من الصفات المتناقضة المتضادة ، وبغير هذا الشرط - ضبط النفس - يحدث التنافر والتضارب بين صفات الذات ومقوماتها .. فتكون النتيجة سيئة .

ولا بد أن إقبال قد فكر كثيراً في معنى الحديث النبوي الشريف الذي قاله الرسول لأصحابه حينما عادوا من الحرب : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا : « وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ . قال : جهاد النفس » ! .

ويهدين الشرطين سالفى الذكر - طاعة الله وضبط النفس -
تصفو النفس من اكدارها ، وتنقي الأفكار من أدرانها وأوشابها ،
أي أن الإنسان يتطهر قولاً وعملاً ، ويصبح قاب قوسين أو أدنى
من الشرط الثالث وهو :

(ج) نيابة الله في الأرض ، ونيابة الله لا تعني الحلول محله
سبحانه لأن ذلك يستلزم خلو المحل وانعدام شاغله أولاً ، كما
يقول الفلاسفة ، وإنما يعنى نيابة الله القوة التنفيذية التي تتولى
اجراء حدود الله وشريعته - أحكام القرآن - وهذه القوة
التنفيذية تتحلى بالعدل والرحمة وبعد النظر والإيمان العميق وتتجلى
في الذات الكاملة القوية ، التي تعتبر كل ما يقويها خيراً محضاً وكل
ما يضعفها شراً محضاً ، ويصور (إقبال) الذات في هذه المرحلة
تصويراً دقيقاً فيقول : إن الذات آنذاك ستكون خالدة باقية
وليست كلمحات النجوم الفانية ، وإن محضرها وغيبتها كلاهما
خير بركة وأنها بريئة من العبودية والرق لغير الله ، فتصبح
(الذات) سيدة للإنس والجن ، ولا غرابة في ذلك ، فهي مكان
النيابة لله عز وجل .

رأيت الكواكب لمحات نور	وذاذك (بالعشق) رهن خلود
تعالى ضميرك عن كل لون	فعمفت من اللون كل القيود
وغيبة (ذاتك) ذكر وفكر	ومحضرها شعرها والنشيد
إذا أضنت الروح آلام رق	ففنك عبد رهن سجود
وإن عرفت قدرها كنت حقاً	على الإنس والجن رب الجنود

وبانتها من الشرط الثالث نأتي إلى المرحلة الثالثة ، هذه المرحلة هي مقام المؤمن الكامل ، صاحب الإرادة والاختيار ، الذي يغلب الدنيا ولا تغلبه ، ويقهر الوجود ولا يقهره ، ولا يهاب الموت بل يبسم له ويعتبره البرزخ إلى عالم الخلود الأبدي ... إنه المؤمن الذي يسخر الكائنات ، ويخضع له الوجود ، ويملك الكثير من عرض الدنيا ، لكنه لا يستهويه أو يغريه أو يستعبده بل هو مع ملكيته للدنيا طليق منها ، حر من قيودها وإغرائها ، وهو ما يعبر عنه (إقبال) بالفقير أو القلندر (الدرويش) إنه سلطان الوجود في حوزته الكثير لكنه في غنى عنه ، لهذا قد يكون الإنسان ملكاً ذا خدم وحشم ، ومال وفير ، وسلطة محدودة ، لكنه (بذاته) القوية القانعة فقير أو قلندر ، وهذا معنى كلمة الصمد ، وهي إحدى صفات الله تعالى .

ومثل هذا المؤمن الكامل يظل يصعد في مدارج السمو والرفعة ، محاولاً أن يتصف بصفات الله ، ومحاولاً التقرب بصفاته الربانية إلى الذات المطلقة ... ذات الخالق الأعظم ، وهذا مصداق الحديث : « تخلقوا بأخلاق الله » ... ومصداق الآية : « كونوا ربانيين » .

عندئذ إذا نطق هذا المؤمن الكامل ، الذي يشق طريقه اللانهائي إلى الكمال ، إذا نطق فبالصدق ، وإذا أتى عملاً كان صواباً ، وإذا حكم حكماً كان عدلاً وحقاً ، وإذا دقق النظر أدرك حقائق الأشياء .. فمن أبي هريرة (رضي الله عنه) في حديث

قدسي عن رسول الله ﷺ : « من عادى لي ولياً آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني ل أعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » .. رواه (البخاري) .

تلك هي المرحلة الأخيرة لتربية (الذات) ، والجماعة التي تتكون من أفراد تلك صفاتهم هي الأمة المسلمة الحقة ، فالأمة فالأمة المسلمة في نظر (إقبال) مجموعة من الذوات الكاملة أو التي في طريقها إلى الكمال ، ومثل هذه الأمة جديرة بقيادة البشرية إلى سبيل السلام والنور والحب والخير ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

وفي مثل هذه الأمة المثالية يقول (إقبال) :

« انها تملو فوق الامم ، لأنها أمة نيظت بها
الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة
امور الخلق ، لأن النوم والتعب محرمان عليها .

انها في البساتين عندليب حسن التغريد ، وفي
الصحارى باز خفيف سريع الانقراض .

الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً ،

كما أن الفقير فيها أمير على الرغم من كونه (درويشاً).

وفي قصيدته (طلوع اسلام) يقول :

أنت يد قدرة الله أيها المسلم وأنت لسانها .

فيها اخلق يقين الهمة ولا تعش أسير الأوهام .

ان الدنيا تقنى ولكنك أعظم خلوداً من الدنيا
لك مجد الأزل ولك نعم الأبد أيضاً وأنت رسالة
الله الاخيرة في الارض لذلك فأنت موصول الدوام .
اقرأ مرة اخرى في سيرتك الاولى ، اقرأ دروس
الصدق والعدل والشجاعة ، لأنك أنت المنشود
لتسود العالم مرة ثانية . هذه هي مقاصد الفطرة
الاولى ورمز الاسلام الحقيقي : أن تملك العالم
بالاخوة وتحكمه بالمحبة ، ما الذي يحا استبداد
(قيصر) وشدة (كسرى) ؟ .

أكانت هناك في العالم قوة تحارب الجبارة سوى
قوة (علي) وفقير (أبي ذر) وصدق (سليمان) ؟ .

ان نظرة المؤمن تغير الأقدار .

تلك هي الخطوط الرئيسية لفلسفة (إقبال) ، فلسفة القوة
والبعث والأمل والتحرر والخلود .

فهل كانت هذه الفلسفة دواء للأمراض القتالة التي انتابت
الامة الاسلامية المضيفة أم لا ؟.

وهل استطاع (إقبال) أن ينفخ في نفير البعث فيوقظ النيام
ويحيي الرميم ؟.

إقبال والفرن

الإنسان .. ذلك الكائن العجيب .. ما طبيعته ؟ وما كنهه ؟

إنه قبضة من تراب شرفتها نفحة قدسية من روح الله أو أضاء
ظلمتها الأرضية ومضة من نور الله القدسي الأسنى ، فنتج عن ذلك
هذا المخلوق الذي تلتقي فيه روحانية السماء ، ومادية الأرض ،
فصارت الحياة معركة دائمة لا ينتصر فيها إلا من عرف ذاته ،
وبدأ رحلته من نفسه ! .

من هذه الزاوية نظر (إقبال) إلى الحياة والناس ثم كون
آراءه ومعتقداته على أساسها ، فكانت فلسفته التي ذكرنا
موجزاً لها .

الفرن :

ما هو ؟ . وما غايته ؟ .

إنه ذلك الإنتاج الفذ ، أو العمل الرائع الذي تخرجه عقول ذات ميزة واستعداد خاص والذي ينبع من صميم الوجدان النابض ، والشعور الواعي والذي يصور مكونات الصدور ومخزون الأفكار في براعة وإبداع والذي يرسم للحياة صوراً ناطقة صادقة .

فالفن باعث للنور في دياجي الحياة ، مرسل للبهجة في آفاقها حامل لمשל الأمل والهداية في جنباتها ، جاعل من مادتها الثرية الفريدة متعة للنفس ، وسعادة للروح ، وتسلية لها في حياتها الصاخبة - فما قيمة الفن إذا لم يفرغ للمكافحين أناشيد البطولة ؟ وما جدواه إذا لم يفتح الآفاق في وجوه البائسين ، ويوسع الآمال أمام الضائقين المتكدرين ، وما نفعه إذا لم يأخذ بيد الحائر ؟ فالفن بألوانه المختلفة هو الزاد الروحي والشراب المعنوي لهذه الجموع الزاحفة نحو الكمال في طريق الخلود الأبدي .

لهذا فالفن نور وهداية وغيث وغوث ورفيق وأنيس ولهذا كانت غايته خيراً محضاً وهنا يلتقي الفن بالدين ويضع يده في يده ويسمو بالإنسانية نحو القمة المرموقة والآفاق الرحبية التي تموج بما يسعد الحياة ويجعلها جديرة بالاحترام والحب .

أما أولئك الذين يؤمنون بمذهب الفن للفن دون التقيد بغاية معينة أو هدف خاص ، ودون الالتفات إلى الناحية الخلقية فقد كان إقبال ينفر منهم بطبعه لأن المسلم محاسب على كل ما يكتب

ويعمل ويقول فلا تنفمه المتعة الفارغة ، ولا يتفق مع مبادئه القاء
الكلام جزافاً باسم التعبير عن لذات والترجمة عن شق الأحاسيس .

الفن والذات :

من هنا كان الفن يبعث في الذات القوة ، ويحمل لها الأمان
والآمال ويبعث فيها الحرارة والمشق والنزوع إلى الترقى ،
ويحررها من أصفاد الأوهام ويخلصها من قيود التردد والخوف ،
مثل هذا الفن هو الذي يعشقه (إقبال) ، ويدعو اليه فناني
عصره ، فالشعر اذا كان لإزجاء الوقت والمتعة العابرة فلا كان ولا
كانت أوزانه :

الدين والفن والتدبير والخطب

والشعر والنثر والتحرير والكتب

ان تحفظ (الذات) هذي^(١) فالحياة بها

أولم تطق ذاك فهي السحر والكذب

كم أمة تحت تلك الشمس قد خزيت

إذ جانب (الذات) فيها الدين والأدب

حتى الغناء لا بد أن يغذي الذات بعناصر القوة والبقاء ،

(١) يقصد الاشياء المذكورة في البيت الاول .

فكيف نعرف الحان التشيبب والغزل المائع ونحن في معركة
نحاول فيها أن نتمسك بأهداب حضارتنا وأبجداتنا وديننا؟.

أليس من العار والخجل أن تختلط قعقعات السلاح بمعسول
العبارات والكلمات المثيرة للحيوانية الكامنة فينا؟. لهذا
يصيح (إقبال) قائلاً :

ان سرت في اللحون دعوة موت
حرم الناي عندنا والرباب

والرقص عند (إقبال) ليس كما يزعم الغربيون حركات
بهلوانية وخصوراً تلتف حولها سواعد، وصدوراً عارمة بالشهوة
تلتقي بصدور ، وإبراز للفتان وإثارة للكامن من الغرائز ..
فليس الرقص بصورته المادية الظاهرة ، بالذي يرضي إقبال
لأنه خلاعة ومجون ، لكن للأرواح رقصاً من نوع آخر ، ونشوة
من نوع غريب ، قوامها ذات كاملة قوية تعرف الطريق الى الله .

دع لأهل الغرب رقصاً يجسوم
ان رقص الروح من ضرب الكلم^(١)
فيهذا الرقص سلطان وفقر
وبذاك الرقص هم لا يريم

(١) ضرب الكلم : معناه الأصلي هو ضرب (موسى) الحجر بعصاه
ليفجر الماء من الصخر .

وما قاله (إقبال) في الغناء والرقص.. قاله أيضاً في الموسيقى والتصوير وغيرهما ، فالفن يجب أن يجيش بما يسمو بالفطرة ، ويصقل ذات الانسان ، ويهذبها .

(إقبال) والشعر :

إقبال شاعر فيلسوف ، فكيف التقى الشعر بالفلسفة في صعيد واحد؟ فقد زعموا أن الشعر خيال هائم لا يعرف القيود والبنود إلا قليلاً والفلسفة وقائع وحقائق لا خيال في منهاجها بل منطق وتسلسل وإيجاد مسببات ثم الانتهاء إلى نتائج .

الشعر لين وادع رقرق ، والفلسفة جامدة صلبة .. الشعر يسكر العواطف ، ويداعب القلوب ، ويهز الأرواح ، والفلسفة تتخذ طريقها الى العقل تحاوره وتداوره ، وتورثه الكد والتعب - الشعر تحليق ونشوة - أما الفلسفة فهي الجدل والقضايا المردودة وغير المردودة ، والمزاعم المنقوضة وغير المنقوضة ، لكن مهلاً ..

إذا كان الشعر كما يقولون فهو إذاً فقاقيع لا تلبث أن تذهب جفاء ، وإذا كان تحليقاً هنا وهناك بلا هدف أو غاية باسم الخيال الخصب والشاعرية العظيمة ، فقد ظلموا الخيال ، وتجنوا على الشاعرية .

وقد يقول قائل : فماذا يراد للشعر أن يكون ؟ .

أيريدون أن يجعلوا منه هو الآخر فلسفة جامدة سقيمة
الأوزان ضحلة الخيال .. عاجزة عن التحليق ؟.

فنجيب قائلين : ان الصورة المرسومة ليست مجرد خطوط
وألوان مختلطة بلا دلالات ، أو معان معينة ، والشعر كذلك
تنتفي عنه صفته إذا كان قوافي وأوزاناً مجردة وجوحاً في الخيال
فحسب .

فحياة الشعر في فكرته السامية ، وجمال الأوزان في معانيها
الرائعة ، وحسن القصيدة في دقتها ونظراتها الصادقة ، وخلود
الانتاج وعظمتها في ترجمته الأمانة عن الوجدان ، ولذا يقول أحد
مؤرخي (إقبال) :

...والحقيقة أن التفرقة بين الشعر الوجداني والشعر الفلسفي
ضئيلة ، لأن كليهما يعبر عن عواطف الشاعر وأحاسيسه ، وليست
هناك قصيدة عظيمة دون أن تتضمن معاني وأفكاراً أساسية ثم
إنها لمقدرة عظيمة أن تثبت أفكارك في ثوب شعري جميل !..

ويقول أحد أدباء الروس المعاصرين (روشكين) : « ان
أعظم فن هو الذي ينقل للانسان أعظم عدد ممكن من الأفكار
بأي وسيلة من الوسائل » .

وإقبال لم يرد للشعر أن يكون فلسفة محضة فننقله بذلك من
رياض الزهر ومسامت النسائم وغفوة النجوم والأفلاك إلى مجالس

الجدل، وصوامع السفسطة والخوض وراء الغيبيات التي لا طائل
تحتها.. لكنه يريد للشعر أن يمتزج بألوان الفكر، وصادق
النظرات وحقائق الوجود وكنه الكائنات وأن يناجي النسائم
ويصقل العقول ويسطر وثائق التحرير والكفاح ويحكم في قضايا
الناس والمدنيات. ان (إقبالاً) ينشد مزج الخيال برحيق الحقائق
والتقاء العقليات مع العاطفيات.. يقول (كوليريج) الشاعر
والناقد الانجليزي :

« لن يكون الانسان شاعراً كبيراً وناظماً مجيداً دون أن
يكون في نفس الوقت فيلسوفاً واعياً ومفكراً دقيقاً، لأن الشعر
أريج علم الانسان وأفكاره وشعوره وعواطفه ولغته قاطبة...»

ولقد كان (إقبال) يعتقد هذا اعتقاداً جازماً ويرى أن
الفن محاولات لفهم حقائق الحياة وإبرازها للناس في وضوح
وجلاء، وليس لمجرد الترفيه والتسلية والترف العقلي لإرجاء
الوقت.. لهذا قال إقبال :

الشعر فيه من الحياة رسالة
أبدية لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نعمة
أو كان فيه نفع اسرافيل

فالشعر عنده له غاية منوطة به ورسالة يسمى لتبليغها في

صدق وإخلاص، رسالة يحملها الشعر في مختلف ألوانه سواء أكان شعراً رقيقاً رزيناً، كأنغام (جبريل) ، أو كان قوياً ناثراً صارخاً، كأصداء البعث والنشور التي ينفخها اسرافيل في صورهِ ليصعق من في السماوات والأرض ثم ينفخ فيه أخرى ليوظمهم من جديد .

والرسالة التي يقصدها (إقبال)، رسالة عامة شاملة لا تحتجزها حدود الهند، ولا تحتجزها أرجاء آسيا ولا تنتشر أضواؤها والآؤها على الشرق وحده بل هي للإنسانية جميعها، وإلى شق أنواع البشر دون تفرقة من لون أو جنس أو لغة أو معتقدات، لأنها رسالة لا تؤمن بمحدود الزمان أو المكان، هي رسالة الإسلام الذي منه اشتق فلسفته، ومن أجله قال شعره، وعلى هداه رسم نفسه، وللناس الحطة المثلى والسبيل السوي .

ألم يبعث لأمتكم نبي	يوحدكم على نهج الوثام
ومصحفكم وقبلتكم جميعاً	منار للأخوة والسلام
فالنهار أفتكم قولي	وأمسيتم حيارى في الظلام

لهذا لن يستطيع أحد أن ينكر تلك الرسالة الكبيرة التي تضمنها شعر (إقبال) أو ينكر مدى انتشارها الواسع، وشهرتها التي طبقت الآفاق، وما ذلك إلا لأنها رسالة عالمية كبرى استقبلها المفكرون والفلاسفة في شق أنحاء العالم بالبحث والنقد والتعليق.

و (إقبال) يرى أن شعره قد مر بثلاث مراحل :

أولاً : دور النشأة والتكوين وفيه من سعة الخيال وابتكار المعاني وروح الحب والجمال وطلب العشق - فيه الشيء الكثير من ذلك مما كان يبشر بمستقبل باهر - لكنه كان خالياً من دقة الفكر والتعمق ، وكانت تتجلى فيه الحيرة والقلق وهذا أمر طبيعي لشاب شاعري المزاج متيقظ الحس يؤمله ما وصل إليه حال مواطنيه من البؤس والشقاء !.

وتنتهي هذه الفترة سنة ١٩٠٥ م أي في السنة التي وصل فيها شاعرنا إلى أوروبا ، لينهل من مواردها ، ويقتطف من رياض فلسفتها وفنها ، وهكذا يبدأ الدور الثاني ، الذي استغرق من سنة ١٩٠٥ م إلى ١٩٠٨ م ولقد كان الشاعر فيه قليل الإنتاج بعد أن استحوذت عليه الأبحاث العلمية والنظريات الحديثة ، والأشواط الفكرية الطويلة ، التي قطعها الأوربيون ، حتى أوشك أن يودع الشعر - كما قلنا - إلى الأبد لولا أستاذه (توماس آرنولد) !.

ولقد كان أثر أوروبا بدياً في شعره في هذه الفترة فاتسعت أفكاره ، وعلت علواً قصرت عنه اللغة (الأوردية) التي كان يكتب بها شعره في بادئ الأمر ، فاتخذت الفارسية لغة ثانية لنظمه .

وكان الدور الثالث والأخير بعد عودة الشاعر من أوروبا حتى

توفاه الله وفيه بدا شعره عميقاً مكتملاً ، وأضحت المعالم جليلة
رحلت السكينة والأمن والطمأنينة مكان الحيرة والقلق في
نفس الشاعر !.

فأخذ شعره يخطو خطوات سريعة منتظمة نحو الكمال بقدم
ثابتة ويقين لا يتزعزع ولا يتقلقل ، وتحول من سلطان المحبة
والجمال إلى سلطان الحكمة والكمال ، لأنها مصدر القوة ومصدر
الحبة ومصدر الجمال .. وكتب منظومتيه (أسرار خودي)
و (رموز بي خودي) تعرض فيها لصفات الرجل المؤمن والتربية
التي يجب أن يأخذ بها نفسه ، والوسائل والغايات التي يجب أن
يعتمدها ، وتعرض فيها أيضاً للدولة الإسلامية - وكيف
تقوم - وعلى أي أساس تنشأ ، وعوامل قوتها وضعفها ، وسر
تقدمها وتأخرها ، ورسالتها التي يجب أن تحملها إلى البشر وعن
ماضيها الزاخر وسر عظمتها وعن رجالاتها وواجباتها وكل ما
يتعلق بها .

هذه عجالة سريعة عن المراحل التي مرَّ بها شعر (إقبال)
ولا نريد أن نستطرد في ذلك ، لأننا نقصد زاوية خاصة في شعر
(إقبال) - كما أسلفنا - ونعني بها موكب البعث الذي يضرب
بأقدامه الأرض ، على وقع الأنفاس القوية الفتية التي يعزفها
(إقبال) .

الحرية في شعر (إقبال) :

(إقبال) يؤمن بالحرية ويعشقها عشقاً ملك عليه فؤاده ،
ويمجبه قول (عمر بن الخطاب) :

« كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ .. »
فالحرية عند (إقبال) أساس الوجود ونعمة الحياة وسر البقاء ،
أو قل هي الروح الذي يبعث أنفاس الحيوية ، ودم النماء في كيان
الأفراد والأمم .. لهذا كان يعتقد اعتقاداً جازماً بصحة مبدأ
(الاختيار) ولا يرضيه مطلقاً قول القائلين (بالجبرية) ، ويعتقد
أيضاً أن (الإيمان بين الخبر والاختيار) .. (حديث نبوي) .

إن الإنسان بتربية (ذاته) وتقويتها والاهتمام بها حسب
الفلسفة التي اعتنقها (إقبال) والتي منبعها الشريعة الغراء ،
يتدرج من الجبر إلى الاختيار ، فإذا ما وصل إلى المرحلة الثالثة
في فلسفة (إقبال) فقد أصبح كامل الحرية ، مطلق الاختيار ،
جديراً بالاستاذية والسيطرة وقيادة العالم ، وأهلاً للقب (الفقير)
الذي طوع يمينه متاع الدنيا الذي يزهد فيه .

فالحرية إذاً صفة غالية هامة ، عزيزة المنال ، لا تكتب كاملة
إلا لمن بلغ الغاية ، وأحسن السير في طريق تنمية الذات وتربيتها ،
وليس معنى ذلك حرمان كل من لم يعتقد هذه الفلسفة من
حريته ، وإنما (إقبال) قد قرن الحرية المطلقة بالرجل الكامل

التربية ، القوي الذات ، والجدير بخلافة الله في الأرض ، أما باقي الأفراد فإن مقدار الحرية يتفاوت بحسب استعدادهم لها ، وفهمهم لمدلولها ، فلقد سخر (إقبال) مر السخرية من هؤلاء الذين فهموا قضية الحرية فهماً أبتى ، وأخذوها مأخذاً ضعيفاً ، فالمسلم الساذج يظن أنه في حرية ما دام يحظى بالشعائر العبادية كالصلاة والصوم ، وما عدا ذلك من حرية التصرف في أمر بلاده وشؤون سياستها ، فلا عليه :

للشيخ في الهند أجزت سجدة
فخال ذا الاسلام حراً سيداً

ومثل هذا المسلم قد فسر (القرآن) حسب هواه وضعفه ، وجعله ذريعة لترك المساعي والكفاح ، مع أن (القرآن) في الماضي كان الأداة التي ملك بها أجدادنا الدنيا :

من القرآن قد تركوا المساعي
وبالقرآن قد ملكوا الثريا
تبدلت الضائر في اسار (١)
فا كرهوه صار لهم رضيا

وفي قصيدته (رجال الله) يصف الرجل الحر وصفاً دقيقاً ، فهو الرجل الذي يسدد الضربات ويحيدها ، والذي تجتمع فيه

(١) المبودية .

عظمة الملك وتواضع الصوفي وأخلاقه ، وغزارة علم الفقيه . أي أنه ذو (تاج) و (خرقه) و (قباء) .. فالرجل الحر سر النور والحياة ، فطرته مستقيمة تتأبى على الشرور والآثام ، وتتأبى بنفسها عن مواطن الضلال والمروق والكفران .

إنما الحر من يجيد ضراباً لا الذي حربه قدور هراء
وسجاي الأحرار تجمع تاجاً ذا سناء ، وخرقة وقباء
من خفايا تراهم أخذ الدهر شراراً فصاغ منه ذكاه (١)
فطرة حرة تعاف الدنيا من طواف الاصنام عاشت براء

ويستطرد (إقبال) في تغنيه بالحرية ، وتمجيده لها فاذا ما
وازى بين الانسان وغير الانسان جعل الحرية هي الصفة البارزة ،
والسمة الواضحة في البشر ، فالأفلاك في سموها وعلو منزلتها
مقهورة مشلولة لا حرية لها :

أين منك الأفلاك؟ انك حر وهي قهر ذهابها والإياب

وانتقل معي الى تلك الروعة حينما يصور ماهية الحياة عند
الأحرار وعند العبيد ، فعيش العبيد خواء وضعة لا معنى فيه
للحياة ، أيام متخاذلة بطيئة تحمل في طياتها الملل والخور والجبن ،
أما الأحرار فحياتهم تشويق وإشراق ومجالات للسبق والتقدم

(١) الشمس .

والإبداع ، حتى لكأن اللحظة الواحدة من حياة أحد الاحرار
تعادل عاماً كاملاً من حياة الأذلاء الواهنين ، لما في تلك اللحظة
من عمل وحيوية ، فحياة الحر مجموعة من الحيوانات المليئة ،
وحياة العبيد خرافات وأوهام وتطفل وتقاعس ، حتى أفكارهم
كالجيفة النتنة المنفرة :

ولحظة الحر عام للذليل فك
كم تبطئ السير بالمبدان أوقات
ولحظة الحر من خلد رسالته
ولحظة العبد من موت فجاءات
وفكرة الحر من حق منورة
وفكرة العبد تغشاها الخرافات
كرامة حية بالحر ماثلة
والعبد من غيره تأتي الكرامات

والعبد قد تغتفر له الفلتات ، ولا يلتفت الى تراخيه ونومه
وركونه للذلة ، أما الحر فان له على الارض رسالة تحرمه النوم ،
وتسلبه الراحة والأمن لأن مبادئه وأهدافه تحتاج الى الكفاح
والصبر ، « ليس للحر على الأرض جام » (١) .

ويهتف إقبال برجال الفن أن يتحرروا من أسار الطبيعة

(١) راحة .

والأيقيدوا أنفسهم وفنهم . بأشكالها المجردة ، ومظاهرها
المروفة ، بل ينبغي أن يظهر كل منهم ذاته ومشاعره في كل ما
ينتج ويخرج إلى الأنام من معجزات فنية ، لأن الروح المنطلقة
المتحررة فيها فن حر ، والروح المقيدة العاجزة فيها عبد ذليل :

تعالى ضميرك عن كل لون فعمت من اللون كل القيود
إذا أضنت الروح آلام رق ففئك عبد رهين سجد
وإن عرفت قدرها كنت حقاً على الجن والأنس رب الوجود

وهناك نوع من الأدب يدعى (أدب الاستعمار) يتزعمه فئه
من المفكرين عاشوا في كنف الاستعمار وطال عليهم الأمد فأولوا
المثل العليا ، وهوروا فيها ، كي يفلسفوا خورهم ، ويغطوا
المخرفهم وفي نظر إقبال ان هذا النوع من الفن لا يستحق أن
يسمى فناً ، ما دام قد انتفت عنه صفة الخلق والتحرر والكرامة :

ليس يخلو زمان شعب ذليل من علم وشاعر وحكيم
فرقتهم مذاهب القول لكن جمع الآراء مقصد في الصميم
علموا الليث جفلة الطيبي واحوا
قصص الأسد في الحديث القديم (١)

همهم غبطة الرقيق برق كل تأويلهم خداع علم

(١) غاية هؤلاء المفكرين أن يبذروا بذور الضعف والوهن في القلوب ! .

وهذا في الواقع تصوير دقيق لحقيقة الفكر في الأمم المغلوبة على أمرها بل هو صورة نفسية صادقة للأمم التي ران عليها التحكم والتسلط رديحاً كبيراً من الزمن ، حتى لكأنما هذه الشعوب قد مسخت وخلقت خلقاً جديداً ، فتبدلت نظرتها وحكمها على الأشياء بدلاً يدعو للاستغراب .. والدهشة .

وهناك أمر هام من الخطورة بمكان .

فالحرية حق مقدس لكل أمة ولكل فرد من أبنائها .

لكن ، أهي حرية التماذي والمغالاة وعدم المبالاة التي لا تكترث بشي ، ولا تعبا بشيء فلا يقيدنا حق ، أو تحزننا باطل ؟ . فهل تفعل الدول الكبرى القوية ما يحلو لها ؟ . وهل تلتهم الأمم الصغيرة كاللقمة السائمة متحررة في عملها ذاك من واجب الإنسانية وعاطفة الأخوة غير عابئة بمثل أو عهود أو موثيق ؟ . إن ذلك وإن كان حرية بالنسبة للقوي فهي ولا شك قهر وإذلال للضعفاء ، إنما الحرية الحققة هي تلك التي لا تتعارض مع مصلحة الآخرين وحققهم في الحياة الحرة الشريفة ، فإذا ما انحسر ظل الحرية عن بلد ليبسط رواقه على بلد آخر ، فإنني لا أسمى ذلك حرية بل هو عين اللصوصية والجشع . مثل هذا الشعب القوي يستمد حريته من جبروته الأعمى ، لكنه في الحقيقة ليس حراً لأنه عبد هواه ، وعبد نهمه وجشعه ، وعبد نفسه الجائعة المتشردة التي لا تعترف بالحرية إلا لنفسها .

أقول لقد كان (إقبال) يفهم الحرية بمعناها الإسلامي الجامع
وبمدلولها المطلق الذي لا يعرف أسود ولا أصفر ، ولا يميز بين
أحمر وأبيض ، لأن الجميع بشر ، وأناس من حقهم أن يستمعوا
بالحرية ، الحرية التي لا تتعارض مع حق الغير ، ولا تصطدم
بالمصالح المشروعة للآخرين فلا تكون سلباً هنا وإيجاباً هناك .
فالحرية الحقبة كالشمس المشرقة التي تطل على هام الجبل ، وتنحدر
على السفوح ، ثم تهبط إلى الوديان والأخاديد ، فتسرب إلى
الكوخ المتداعي ، وتتدفق إلى القصر المنيف .

فالحرية بين العالم وهم وزعم وتجارة .

والحرية في الفن .. ماذا بصدددها ؟

أيكتب الشاعر مثلاً كل ما يريد ، ويعبر عن كل ما يخاطر

ببأله ..؟

أنا لا أعرف كأننا يعمل كل ما يحلوه ، ويعبر عن كل ما
يدرج في خياله إلا كأننا واحداً فقط ، وأعني به المجنون الذي
تجرّد من نعمة العقل ، فلا لوم عليه ولا عتاب ، لكن المهم ألا
يترك مثل هذا المجنون ليدمر ويحرب حسب ما هوى ، فماذا
يحدث لو ترك على هواه ؟ .. لا شيء إلا أن (مجنوناً وليج مصنع
الزجاج) - على حد تعبير (إقبال) - فلن يترك آنية إلا
وحطمها ، ولا نظاماً إلا وعبث به .

ماذا يحدث إذا كتب الأديب إنتاجاً يتنافى مع الخلق ،

ويحرض على الرذائل ويقضي على الفضائل؟ .. ماذا يحدث إذا أثار الفرائز وزين لها الطريق المعوج، وزوَّق لها الأمانى الفارغة الماجنة؟ .. وماذا يحدث لو حمل معول هدمه وانقضَّ على الأجداد والمثل الخالدة، ليزيلها ويبنى على أنقاضها الرياء والكذب، والنصب الجوفاء التي أملاها عليه خياله السقيم وفكره العقيم، وشدوده المزري، مستعملاً مع ذلك عجيب الحيلة والاسلوب الملتوي والتلاعب بمواطف الجماهير؟

إن (إقبالاً) يؤمن بحرية العقلاء البانين وليس بحرية الجهلاء المهانين الذين لا يؤمن جانبهم إذا ما دخلوا (مصانع الزجاج) .. (إقبال) يؤمن بقضية الحرية على أن تجعل من نفسك الطيبة وذاتك المترفعة النزهة قاضياً عدلاً ، في تلك القضية الشائكة ، ولا بد للقاضي من استعداد خاص، وتربية معينة ، حتى يصيب الحق إذا حكم ، ويحسن تسديد الرمية إذا رمى .

وقد يستغل مستغل هذا الرأي فيحدث من الحرية ويضع لها القيود ، ويثقلها بالأغلال والدعاوى الكاذبة ، ويقم الحواجز والموانع في سبيلها ظلماً وعدواناً، مثل هذا المستغل سنترك أمره للحرية نفسها ، لأنها ند قوي صارم ولها أعوان وجنود ، ليس من السهل أن ينهزموا أمام الحاقدين والأدعياء .

سنترك أمره للحرية كي توقع عليه العقاب وتثار منه، وتجعله

عبرة لغيره ممن تحدثه نفسه بالاعتداء عليها أو حتى مجرد المساس
بجرمتها مساساً طفيفاً .

تلك هي حقيقة الحرية في رأي (إقبال) المسلم .

ولا يضير الحقيقة أن يفترى عليها المفترون ، ويتجنى
المتجنون ، ولا يضير الحقيقة أن يستغلها أحدهم شمالاً ، ويستغلها
الأخر يميناً ، لأنها هي نفسها تعرف الطريق وتسير به بلا لف أو
دوران ، وتندفع فيه غير عابثة بذوي الكيد والمؤامرات ،
لأن الحقيقة قوية خالدة لا تموت .

فله حرية آداب يجب أن تراعى .

ولها حمى يجب أن يظل مصوناً .

ولها أمناء وحراس ، من العيب والجور أن يعتدى عليهم او
يحقرّوا .

ولها ظل ظليل ، وروضة موقنة يجب ألا تدنس بالجيفة
والأقذار .

ولها منطلق سلس مستقيم يجب ألا يوصم بالعوج والالتواء .

ولها رسالة فوق مستوى التهم والشبهات يجب أن تحترم
وتحمل الى الناس ناصعة شفافة منزهة عن الأهواء والأغراض .

وصدق (إقبال) إذ يقول :

بحرية الافكار هلك جماعة اذا لم يكن فيها تدبر عالم
فحرية الافكار في رأس جاهل طريق لرد الناس مثل البهائم

بين التقليد والتجديد :

حياة الفرد - كما قلنا في فلسفة (إقبال) - تطور دائم ،
ورقي مستمر ، وهي في حاجة دائماً الى الانشاء والتجديد ،
وبالتالي في حاجة الى المواءمة والتوافق بين ما يحدد وما يبني ،
فالعلاقة بين الجديد والقديم علاقة أبدية ذات فائدة .

أما الاستمسك بالقديم وتأليهه وتقديسه ، والاصرار على أنه
هو الغاية التي ما بعدها غاية ، والعظمة التي دونها كل عظمة رغم
ما قد يبدو من عيوب ، ورغم ما يحتاجه من إصلاح وإضافة ،
كل هذا يعتبره إقبال جموداً ورجعية ، وتعطيلاً للمواهب الانسانية
وإعاقه لموكب الحياة المتقدمة المتطورة ، وتصدياً لسنن الكون
وناموس الوجود ، وطبيعة الاسلام الذي يدين به (إقبال) تأبى
هذا وتنكره ، لأنه دين الفطرة السليمة ودين العموم والشمول ،
ودين السعة والاستطراد في مدارج الخير ، ودين التوثب والرقى
مقى انعدت النية الطيبة ، وبان وجه المنفعة ، ومقى كان التوافق
جلياً بين ما تؤمن به وبين ما استجد .

لهذا صاح (إقبال) في جموع المفكرين الجامدين كي يتحرروا
من اسار القديم ويحطموا وثاق التقليد الأعمى ، ويقدموا ما عندهم

من فن جليل وافتاح سليم بطريقة مرضية محببة الى النفوس وفي
ثوب أنيق جميل يستثير الشوق ، ويجبر على الاحترام والتقدير ،
ويلائم ظروف العصر ، ونهضة الحياة وخطاها المتتابعة نحو المجد .

ومن ناحية اخرى لا يترك (إقبال) الجبل على الغارب لكل
ثائر على القديم منكر له ، بل يرى المفيد اللائق ، ويلبسه الزي
المناسب ثم يبرزه متألقاً جذاباً ، أو بمعنى أصح يبعثه بعثاً
جديداً ، فنخاله مبتكراً تابعاً لأول مرة ، لا أثر للبلى عليه ،
لهذا ينكر (إقبال) اسلوب اولئك الذين اذا دعوا للتجديد
حطمو كل قديم ووصفوه بالفساد وعدم الصلاحية ، ودعوا
لدفنه في قاعات المتاحف ، وتركه في ذمة التاريخ .

ان (إقبالاً) ثائر لكنه عاقل في ثورته ..

ومتحرر لكنه لبق في تحرره .

ومجدد لكنه لا يحدد فضل قديمه ولا ينتكر له ، بل يفحصه
ويمحصه ويأخذ منه ما يريد وما تريد سنن الحياة .

و (إقبال) فيلسوف ، والفيلسوف متصف باليقظة والحرص ،
وبعد النظر ، انه يقول لهؤلاء المتسابقين في جنون إلى منهل كل
جديد ، رويدكم تمهلوا ، وتبينوا ، ليس كل جديد جيدراً بالأخذ
معصوماً من العيوب ، فلکم أيها الناس بصائر وأبصار فضعوا كل
ما يأتیک تحت (مجهر) الفحص والتأكد ، فاذا آمنتم مجدواه ،

وتبين لكم سلامته وميزاته ، وعدم منافاته لخلقكم ومعتقداتكم ،
فاقبلوا عليه وأنتم واثقون مطمئنون ، كي تسعدوا وتسعد
أجيالكم ، ليس كل قديم مقضياً عليه بالفشل والنبد ، كما أن كل
جديد ليس أهلاً للإيمان به والجري وراءه .

والتقليد في نظره مسخ لشخصية الانسان ، وطغيان على
ذاته وإهدار لفرديته ، فالمقلد ، كما يقولون ، يفنى ويذوب في
الشخصية التي يقلدها، ويتبع سبيلها، ثم انه لن يصل الى الدرجة
التي وصلت اليها هذه الشخصية مها كان اتقانه للتقليد .

جدة الدنيا بتجديد الفكر
ليست الدنيا بصخر أو مدر

ثم يتجه (إقبال) إلى بعض مصلحي الشرق ذوي الأفكار
الحادة التي تشبه فن (السامري) بين قوم (موسى) ، ويقول
لهم انكم لم تستمسكوا بالسنن القديمة القوية ، ولم تكلفوا أنفسكم
مشقة الأخذ بالسنن الحديثة التي ثبت نفعها وجديتها .

يئست فلا أرجي في أناس لهم فن كفن السامري
سقاة في ربوع الشرق طافوا علي الندماء بالكأس الخلي
سحاب ما هوى برقاً قديماً وليس لديه من برق فتي

إن الشعوب التي لا تجد جديداً تركز اليه وتفيء إلى ظله ،

ولا تجد قديماً تتذرع به وتمشي على منهاجه الصالح ، لا شك أن مثل هذه الشعوب تقع في ظلام الحيرة القاتلة وتردى في وهاد الشك والقلق ، اللذين يعوقان تقدمها وسيرها في مواكب النشوء والإرتقاء .

و (إقبال) يقول ان عناصر النشوء والتطور كامنة في خلقنا وطباعنا فما علينا إلا أن نعرفها ، فنثيرها ثم نوجهها التوجيه المفروض لها ، وليست هذه طبيعة الانسان وحده ، فالأغصان في نمو وسمو دائم نحو الفضاء ، والحبة المدفونة في ظلمة التربة فيها مثل تلك الطاقة التقدمية النزاعة إلى الصعود .

على كل غصن تبين أن النبات مشوق لرحب الفضاء
فما قرّ في ظلمة التراب حب جنون النشوء به والناء
فلا تبغ في فطرة ترك السعي فما ذاك معنى الرضا بالقضاء

لأهل الناء قضاء فسيح
وما ضاق ملك الإله، فسيحوا

ولا شك أن الخضوع التام للتقليد بداية الانهيار ، وعلامة الموت :

كيف تجلى حقائق لعيون عميت بالخضوع والتقليد
كيف يحيي الفرنج عرباً وفرنساً بفنون تسير نحو اللحد

ويعتقد (إقبال) أن الشرق والغرب كلا منهما يدور في دائرة ضيقة مغلقة من صنعه ، وما زال في شرك القديم .. ولعل متسائلاً يقول :

هل رجال السياسة الغربيون مثلاً ما زالوا في أسر القديم وهم الذين طبقت شهرتهم الآفاق لبراعتهم في الدهاء ، وقوة خططهم في المناورات والمراوغات والسيطرة ، وكثرة تأليفهم في العلوم السياسية والاقتصادية والقانونية؟ والحقيقة أن (إقبالاً) لا يعنى كثيراً بمجرد المظاهر والصور ، وإنما الذي يهيمه روح تلك السياسة ونتائجها ، إنه يعتقد أن السياسة لم تتجدد ولم تتغير ، اللهم إلا أنهم قننوها وبننوها في قوانين وبنود ، ورسموا لها القواعد ، وجعلوها علماً يدرس ، فما روح تلك السياسة إذن؟ إن روحها يظهر واضحاً جلياً في سياسة (تشرشل) ، و(غرور) (هتلر) ، و(تهور) (موسوليني) ، وأحلام (نابليون) ، وكتابات (مكيافيللي) ، وإرهاب (ستالين) ، ومن قبل أطماع الرومان وقياصرهم !.

ويوجز إقبال رأيه في الأدب الحديث بقوله إنه يجب أن يكون مزيجاً من سمات العشق وسكبات العقل المؤمن ، وينفر من التقليد :

رأيت العشق يقفو اليوم نهجاً من العقل الالهي القويم
وليس يريق ماء الوجه ذلاً على أعتاب محبوب غريم

عما التقليد في روح قديم وأحيا الروح في جسد قديم
ويقول محذراً من التقليد في مكان آخر :

أمن (ذات) غيرك تعمر قلباً معاذ الاله ترى أين (ذاتك) ؟
كمال المحاكاة انك تفنى فيكفيك هم الحياة بماتك

وحيثما يتكلم (إقبال) عن الرجل العظيم يقول انه وإن كان
قد نشأ في زمان سيطر فيه التقليد على كل شيء ، إلا أنه نجح
بنفسه من هذه الوصمة نظراً لما في طبعه من حب للخلق والتجديد :

نشأته ظلمة التقليد بالناس تحيق
غير أن الطبع بالابداع والخلق خليق
مثل شمس الصبح فكر فيه نور وبريق
لفظه حريسير لكن المعنى دقيق

إن البعد عن التقليد الأعمى طريق موفق ، يثير في الشعوب
معنى العزة والاباء والاعتداد بالنفس ، والاعتماد عليها ، فقد
استطاع إقبال أن يذكر أمته بأنها أهل للخلق والابتكار ، لذلك
كان لا يفتأ يذكر الشعب بأبائه الأجداد الأفاضل ، الذين حملوا
مشعل الهداية والنحرر والترقي إلى العالمين في الشرق والغرب :

بلغت نهاية كل أرض خيلنا وكان أبحرهما رمال البيد
في محفل الأكوان كان هلالنا بالنصر أوضح من هلال العيد

في كل موقعة رفعنا راية للمجد تعلن آية التوحيد
أمم البرايا لم تكن من قبلنا إلا عبيداً في اسار عبيد
بلغت بنا الأجيال حرياتنا من بعد أصفاد وذل وقيود

الطبيعة في شعر (إقبال) :

إن نظرة الحكيم الحق إلى الأشياء نظرة عميقة فاحصة ولذلك
فهي تتعدى المظاهر والأشكال إلى ما وراءها، ولا يكفيها السرد
السطحي والوصف المجرد ، لأن هذا شيء يراه كل إنسان ومن
هنا كان عمل الفنان الحق أبعد مرمى وأدق غاية من سائر
المشاهدين لمناظر الطبيعة ، وصورها المتعددة .

فثلاً أنا وأنت نرى أمواج البحر الثائرة ، فنقول انها هائجة
مضطربة ، أما (إقبال) فلا يكتفي بذلك الوصف بل يفلسفها
ويقول : إن ثورة الأمواج صدى لما يمتلئ في نفسي من حركة
وفوران وحرقة وتوقان الى السير في طريق الحرية والقوة
والكمال ، لأن (إقبالاً) يؤمن بأن على الفنان أن يسبغ ذاته على
الطبيعة ، ويفرقها في روحه ، فيجعلها لا تبدي لنا إلا وجه
الحقيقة ، التي يؤمن بها ، ولا تظهر لنا إلا قوة المعاني التي يعتنقها .

كان (إقبال) يقدم لك بعض الصور التي يخيل اليك أنك
كنت تكنها في نفسك ، لكنك لم تكن تدري كيف تبرزها
وتخرجها ، ثم جاء (إقبال) وقدمها لك فريدة مؤثرة موفقة ،

و (إقبال) حين يقدم قضاياها الفلسفية وأفكاره القوية لا يقذف بها اليك بلا حواش أو مقدمات ، لكنه يزفها اليك زفافاً شائقاً ، شأن الرجل الخبير المتمكن من فنه ، كما أنه ينتزع الدليل القاطع مما يقع تحت بصرك من الطبيعة ومشاهدها المختلفة .

وكان (إقبال) ينكر على أولئك المتصوفة الذين يهيمون فيها وراء الطبيعة ويذكروهم أن دنيانا أجدر بالنظر والالتفات لما فيها من حوادث وأحداث ، وإلا فمعنى انصرافنا عن دنيانا هو ضياعنا ، كالأمس الدابر .

إن حب الدنيا وكراهية الموت كان من أهم الأمراض التي انتابت الشرقيين ، و (إقبال) ، حين معالجته لهذا الداء ، يذكر المسلمين بأن الدنيا مصيرها الى زوال ، وأنه لا بد من الموت الذي بعده الخلود الأبدي ، فإذا كان الموت قدراً محتوماً ، ففيم الخوف ، وعلام الجبن ؟ .

تحت نور الأفلاك عيش جميل وأرى النور ينظفي ويحول
وعلى كاهل المساء ترى للشمس ناعشاً بكى عليه الأصيل
في سنى البدر للكواكب أكفأ ن ، تواري بها الشعاع النحيل
ليس زاد المسافرين سوى الخوف من الموت والحياة رحيل

ثم ما هي الحياة ؟

إنها صنم يعبدته هؤلاء الخائفون المستسلمون ..

أو هي غانية لعوب ماكرة قد أسرتهم بنظراتها المنكسرة
الغاوية، وكان من الواجب أن يأسروها، أو كما يقول (إقبال):
إنها كطائر رخيم الصوت، جميل الأداء، ملاً الروض بهجة
ومتعة وأثار النشوة في جيد الأزهار فرقصت وماست، فما كان
أعذب للحن وأروع، لكنه كان كاللحم الذي يداعب أجفان
النائم حينما يطوف به الكرى، ثم ينجاب اللحم ولا يتبقى شيء
إلا مرارة الذكرى والحسرة على الضائع... ثم يقول:

لا يعلم الانسان كيف أتى الى دنيا المتاعب أو متى يرحل
بما نحن في الأكوان غير حديقة أزهارها عمال قليل تدبل
يا أيها الحرص ابك في الدنيا دماً دنياك ليس بها لحي منزل

ويقول في مكان آخر، ليؤكد أن الموت ليس معناه الفناء
ولكنه انتقال الى عالم آخر فيه الخلود والبقاء الأزلي:

كل كون أبلته أيدي الليالي أحرقوه ليصنعوه جديدا
يهدم البيت بعد حين ليبنى منزلاً عالياً وقصراً مشيداً

ويقول:

تغرب النفس ثم يشرق صبح فيه للنفس بالخلود ارتقاء

فهو حين يذكر الموت لا يقصد بذلك أن يثني القلوب عن
الكفاح والصراع، ويملاً النفس بالتشاؤم وعدم الاكتراث،

ويحطم لديها قصور الأمل ، لكنه أراد أن يقول لهم : أقدموا
ولا تهابوا الموت فمن الضعف والضلال أن تهابوا الموت في سبيل
خلودكم وعزتكم وحریتکم، وهو لا بد ملائیکم وإن طال الأجل.

والآن أتدري لماذا تشدو الطيور في رقة وجمال وعاطفة

حیاشة؟

إن هناك سبباً لا یخطر علی بالک ، والسحب وهي تندفع
وتقطع المسافات الواسعة ثم یفیض ماؤها ليروي الظمأ، ويرطب
اليباب والقفر ، ما السبب في ذلك؟ .. إنه سبب لا یرق في
مخيلتك أبداً! .. والموج في علوه واصطخابه وطغيانه وعلوه ،
ما الذي یثير فيه تلك الطاقة ، ويحرك بين جنبيه تلك النشوة
العارمة؟

یحیب (إقبال) علی حیرتک وتساؤلک بأن سر هذا كله هو
الهجران .. أجل الهجران ذلك الذي یثير الرغبة والعشق ،
ويؤجج الحنين ويدفع علی العمل ، ویزوق المنی ، والمعروف أنه
في القرب راحة ، وفي الهجر مشقة وألم ، لكن (إقبالاً) یحول
تلك المشقة وهذا الألم الى دافع قوي من دوافع القوة والحیوية
والکفاح :

الوصل في الحب غال وقيمة الهجر أعلى
الوصل حلو ولكن عواقب الهجر أحلى

في القرب موت الأمانى
والبعد فيه حياة
والعيش فيه فناء
بذكي ضياها الرجاء

إن اتقاد الأمانى
وضجة الخلق سعيًا
وحسن شدو الطيور
في العالم المعمور

والسحب حين تراها
والموج في البحر يعلو
تسقي الربى واليباب
حتى يفوق الهضاب

وكل ما في البرايا
لولا يد الهجر فيه
من زوعة وجلال
لم يزدهر بالجمال

ثم انظر لتلك الصورة الحية للكائنات ، عندما تفرع من
نومها ، على ضجيج الفارة التي تشنها جحافل النور على قلوب
الظلام الهاربة المذعورة ، ثم يعم الصباح أرجاء الوجود ،
فتتأهب الحياة وتمطى ، وتنفض عن جدها رداء النوم والقعود
وتستقبل موكب الشمس بما هي أهل له من استعداد ، وبما هي
جديرة به من لقاء :

حينما يسفر الصباح ندياً ناصعاً في مواكب الاشرار
ينفصل النور في المشارق أد ران الدياجي عن حلة الآفاق



ويطير الكرى وينتبه العش ب وتصحو عزائم الكائنات
ويهب الأحياء في البر والبحر ر ليستقبلوا عروس الحياة



وإذا كان للخلائق ناموس يرينا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن بعد ليل الحمام صبح البقاء

ولقد كانت البيئه الجغرافية التي عاش فيها (إقبال) معيناً
لا ينضب لشعره وزاداً لا ينفد لأفكاره المتواصلة ، فقد تقلب
بين الجبال والوديان والشعاب ، ورأى الأنهار تنحدر فوق السفوح
تسطر حكمة الأبد ، وتتبعثر المياه لتتجمع مرة ثانية ، أو تقوص
في الرمال ، لتلتقي بعد ذلك في مجراها من جديد حاملة الرسالة
السرمدية ، وهي أن الحياة فراق ولقاء ، وصراع وجلاد وجلال
وجمال ، وملتقى الأشتات !.

فلنبداً هذه الرحلة الخالدة مع إقبال ، لأنها وإن كانت رحلة
النهر من منبعه إلى مصبه إلا أنها رحلة الإنسان من البداية حتى

النهاية ، ولأنها قصة محسوسة ملموسة لا نبرح نرمقها لاهين ناسين
غير مدققين فيها :

من رؤوس الجبال ينحدر النهر طروب الأمواج عذب الأغاني
تنقل الطير عنه بين الروابي ماتبت الفصون من الحان

كخدور الحور الحسان تراه في صفاء البلور حلو التحرير
ثم تمضي تلك المياه ضياعاً في تلال منثورة وصخور

قطرات من النمير طوتها في ثنايا الرمال أيدي الفراق
ثم تجري بها الينابيع في الأرض فتحظى بعد النوى بالتلاق

فإذا النهر بعد ذلك في مجرا ه يحيي الزهور والأعشاب
فضة تنبت الزمرد في الأ رض وتسقي النخيل والاعناب

وحياة الإنسان نهر سما وي توالت بسيره الأقدار
كلما غاض ماؤه عاد فيا ضاً ، فما ينقضي له تيار

وهكذا تتأزر آحاد الطبيعة ، ويتعاون أفرادها مع محافظة كل كائن على صفته - أو ذاته الخاصة - فالطيور تأخذ شدوها ، وتتعلم لحنها من الحفقات والأنغام التي تصدر عن النهر ، والماء يسري كالشرايين أو كالفضة الذائبة بين طبقات الأرض ، باحثاً عن الجذور والبذور ، كما يدفع فيها سر الحياة ، ويذيع فيها روح البقاء والنماء !.

كان (إقبال) مثل الصيدلي الذي يحضر الدواء الشافي ويحده مر المذاق غير مستساغ الطعم لا يقبله المريض ، لكن هذا الصيدلي البارع يفكر في الأمر ، ويقده زناد فكره ويجري التجارب المعديدة حتى يتمكن من إضافة مادة معينة ، جميلة الطعم والرائحة ، إلى الدواء المر ، فتحجب مرارته ، وتجعله مستساغاً مقبولاً ، دون أن تنقص من فائدته للمريض شيئاً !.

كان هذا شأن (إقبال) في أدائه لأفكاره الناضجة ، وعرضه لفلسفته الخالدة ، فلسفة البعث والتحرر والكمال !.

السخرية في شعر (إقبال) :

إن (إقبالا) المسلم في عقيدته وعمله وأخلاقه إنسان عف اللسان ، شريف المقصد والنوايا ، ويعلم تماماً أن الله يقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً

منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً ممنهن ، ولا تلتزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب .

فاذا كان الأمر كذلك فكيف يسخر (إقبال) إذن ؟

لم تكن سخرية (إقبال) إلا لونا من التأديب والتهديب ، أو إشارة إلى وضع شائن يجب أن يباد ، واعتقاد أحق ، يجب أن يبال عليه التراب ، وربما كانت سخريته نوعاً من المزاح ، ذلك المزاح الذي يصف المؤرخ به النبي (ص) حينما قال عنه : « كان يمزح ولا يقول إلا حقاً » .

وليست السخرية المحمودة - ان صح أن تسمى كذلك - شيئاً مبتدلاً هيناً يستطيع كل لمن أن يأتيه ، لكنها فن ودراية وعبقرية ، فترى في اللمحة العابرة معاني كثيرة ، وفي الإشارة السريعة مغزى عميق الغور بعيد المقصد ، وفي البيت الواحد أو البيتين إيجازاً متقناً بليفاً يحمل في تركيبه الحكمة البعيدة النظر .

بهذه الطريقة البارعة التي لا تتنافى مع خلق أو دين هاجم (إقبال) أدعياء النبوة في العهد الحديث ، وانها على أنبياء السياسة وأساطينها تقريباً لاذعاً ، فلم يفلت منه متجن أو جاحد .. ولم ينج من نقده القوي شارد أو وارد ممن استكانوا للاستعمار أو خدعوا بالحضارة الغربية على علاتها .. أو الذين نصّبوا أنفسهم حماة عن الدين ، وحفاظاً لثرائه ، وهم لا يعلمون منه غير حفظ المتون وإطالة اللحى ، وحبك المعائم .

ثم يتجادون ويفتون بإبطال الجهاد .. و .. و .. الخ .

وقد يقول قائل :

كيف تسنى لهذا الرجل الجادّ (إقبال) أن يقذف بنكاته اللاذعة ونقده المر ، وعباراته المضحكة المبكية في آن واحد ؟ .

ولكن لا عجب في ذلك أبداً .. فإن العباقرة نفوسهم بعيدة الآفاق وقلوبهم رحيبة الميادين ، يصلون في كل مجال ، ويجوبون في شتى المناحي ، لأنهم كبار في أفهامهم ونظراتهم كبار في مقدرتهم وإرادتهم وابتكاراتهم ، يسعون الدنيا بأشكالها وألوانها .

ومن أمثلة سخريته الخالدة أن جماعة ماجورة قامت في (الهند) وزعمت أنها باسم الاسلام تفتي وتكلم وانتظر الناس هناك ماذا تقول هذه الجماعة ، وما أن تكلموا ، حتى كان أمرهم عجباً ، لقد أصدروا فتواهم قائلين بأن هذا العصر عصر المدنية والحضارة ، عصر التقدم الفكري ، ولهذا فإن الدعوة في هذه الأيام لا تكون إلا بالقلم والمنطق والتفاهم ، وقرروا أن الجهاد باطل في هذا العصر .. ومن خرج عن ذلك فهو خارج عن الاسلام .. وسرعان ما شرع (إقبال) والألم يعتصر نفسه ويحرق فؤاده ، إذ كيف يطالبوننا بالكف عن الجهاد رغم أننا لا نملك سيفاً ، ولا نحشد قوة .. بل نحن مستعمرون مستذلون ؟ أما كان

الأجدر بهم أن يسوقوا هذه الفتوى الى من حكموا الشرق رغماً وقهراً ، واستعبدوا بنيهم ، وحكموا القرة لا العدالة ، وركنوا الى السيف لا الى المنطق السليم ؟ انهم سفكوا الدماء ، وأغرقتوا العالم في عنفهم وظلمهم وتسلطهم .

قال (إقبال) :

الشيخ أفق أنه عصر القلم ما السيف فيه حاكم بين الامم
أما درى الشيخ بأن وعظه في مسجد قد صار من لغو الكلم
فما ترى السلاح كف مسلم بل قلبه من لذة الموت حرم
فعلن ترك الجهاد طاغياً من كفه يسيل في العالم دم ..
أما ترى الغرب بدا مدججاً ليحفظ الباطل في عز عمم
يا مفتياً على الكنيس مشفقاً قد حار في أحكامه أولو الفهم
الحرب في المشرق شر داهم والحرب في المغرب شر لا جرم
ان يتنح الحق فكيف حاسب المسلم لا الفرنج ذلك الحكم ؟

ولقد كثرت النحل وتعددت المذاهب ، وكثر أيضاً أديباء النبوة في البنجاب فاتخذ (إقبال) من المسلم البنجابي مثلاً للتقلب والافتراء والزعم .. وإشارة للأفق الضيق والفهم الساذج ، ولم لا ؟.. ألم يبتدعوا النبوات ويسرفوا في الفتوى ، ويفرضوا على الامة المحطمة المستعبدة أن تمشي بغير جهاد ؟.

مجدد في كل حين مذهباً يحل في مرحلة ليركبا

في حلبة التحقيق نكس وإذا خامره داع غوى غلبا
حباله التأويل ان تنصب له هوى من العش اليها ممجبا

وفي مكان آخر يكشف (إقبال) الستر عن تضليل الغرب
وخداعه ، ويفضح مدنيته التي تركز على النفاق وتحيا على الرياء
والكذب .. وذلك عندما أنشئ مسجد (باريس) ، فتراه
يتخذ من هذا العمل فرصة لإزالة القناع عن نوايا الاستعمار
وخفائيه ، وكأنه يقول : أيها المعجبون المقدسون لفرنسا نظراً
لإقامتها هذا المسجد ، رويدكم .. فإن من بنى هذا الأثر الديني
قد عاث فساداً في الشام ، وخرّب (دمشق) وخنق حرياتنا
وداس عواطفها لأنها تريد أن تتحرر :

يا نظري لا يخدعك فه للزور هذا الحرم المغرب
ان الذي شيد هذا موثناً (دمشق) من عدوانه تحرب

ويواصل سخريته من الغرب وثوراته المجنونة وأنظمتها المضطربة
الحائرة وأفكاره المتناقضة .. إن (إقبالاً) يقول للروس : لقد
يجلتم الصليب وقدستموه من قبل ، وأرقتم على جوانبه الدماء
لتحموا حوضه ، وتحرسوا سدته ، ثم ها أنتم أولاء اليوم تحطمون
الصليب وتشنون عليه الحرب العوان ، وتحقرونه وتزدرونه ..
تري ماذا دهاكم ؟ لعل الوحي الجديد قد أمركم بهذه الزندقة .

ان سير القضاء جد عجيب أي سر حوى ضمير الزمان
ليس يألو الصليب كسراً قبيل كان يرجو النجاة بالصلبان
أمر الوحي ملحمدي الروس هدوا ما بناه القسوس من أوثان

وفي مقطوعة (موسوليني) يتحدث هذا الزعيم الإيطالي
ويوجه خطابه الى الثائرين في وجهه الواقفين في طريق مطامعه
من حكومات الدول الغربية ويقول لهم : ماذا تريدون مني ؟ ..
ان كنت أنا (موسوليني) أسفك وأدمر ، وأوسع رقعة
امبراطوريتي ، فأنتم أيها الغاضبون الحاقدون قد سبقتموني في
هذا المضمار ، أتريدون منا نحن أبناء (قيصر) وأحفاد العظام
أن نسكر في اللهو والطرب ، أما أنتم فتملكون وتحكون ..
لا تلموني يا ساسة الغرب فإن مدينتنا هكذا ، وما أظن
مدينتكم إلا كذلك .

كلانا بالآت التمدن آخذ أتقم أفعال السيوف حراب؟
وقد نعموا مني غرام تملك أما نار منهم بالضعاف ضراب؟
أينفخ في الأعواد أبناء قيصر ويحيي اليكم عامر وبياب؟
نهبتم خيام البدو والزرع والقرى وكم كان منكم للعروش نهاب
قصدا من التمدن قتلنا وغارة أأمسكم فخر ويومي عاب؟

وفي معرض المفارقة بين الشرق والغرب وما بينها من صلات

قديمة وحديثة ، يلح إقبال إلى قضية سوريا الجريحة آنذاك
فيقول : الشام بالأمس قد أهدت (المسيح ابن مريم) إلى الغرب
فما بال الغرب اليوم يبعث اليهم بهدايا من النساء والخلاعة
والموبقات ؟.

أهدت الشام إلى الغرب نبياً هو عف ومواس وصبور
ومن الغرب إلى الشام هدايا من قمار ونساء وخمور

وتراه في مكان آخر يدحض مزاعم اليهود ويرد دعواهم على
أعقابهم حينما يدعوون ملكية (فلسطين) ، لأنها كانت لهم في
قديم الزمان فيقول ساخراً : أما كان للعرب أن يطالبوا بأسبانيا
تلك التي ملكوا زمامها في غابر الأيام وملأوا ربوعها علماً ونوراً؟
ثم يعود فيقول أن المستعمر لا يفتأ يردد أنه قد خلص الشام من
أيدي الأتراك المستبدين وينسى هذا الوهم الغاشم أن الشام قد
سقطت في يد استعمار قاس لا يرحم ، وطغيان أليم لا يزول لا
يقاس بطغيان الأتراك . ولقد سأله أحد زملائه في جامعة
(كمبردج) قائلاً :

— لماذا يبعث الأنبياء ومؤسسو الديانات في آسيا دون
أوربا ؟.

فأجابه إقبال :

— لأن العالم مقسم بين الله والشيطان ، ولما كانت آسيا من نصيب الله كانت أوروبا من نصيب الشيطان .

فرد أحدهم قائلاً :

— قد عرفنا رسل الله فأين رسل الشيطان ؟ .

فأجاب (إقبال) على الفور :

— انهم زعماء سياسة الخداع والمكر في أوروبا ! .

على هذا النسق العبقري الغريب كان (إقبال) يسوق بعض نظراته العميقة التي تتناول مشاكل الحياة والمجتمع وشئون الدين والسياسة ، وهو في كتاباته لا ينسى الغرض الأسمى ، الذي يؤمن به ولا يتجاهل المثل الأعلى الذي ينشده ! .

ولقد كان يتناول أعقد الأمور وأشق القضايا بهذا الأسلوب المعجز حتى في الأوقات التي يجتمع فيها حشد كبير من الناس فيلقى بما يراه في شجاعة لا تعرف التراجع وأدب لا يعرف الزلل ولباقة تستنكر كل خروج على العنايلد والأوضاع السليمة ، ومن ذلك أنه بينما اشتد الجدل بشأن مسألة الحجاب للمرأة ودارت المناقشات الحامية الوطيس بين المؤيدين والمعارضين فإذا بإقبال يخرج عليهم بمحكته الساخرة الصادقة في آن واحد ويقول لهم :

« إنني أدافع عن هذا الحجاب لأنه يزيد الرغبة في الملاح ولا
يحرم منها القباح ». ولقد قال المرحوم (علي الجارم) في إحدى
قصائده ما يقرب من هذا المعنى :

« والنفس أغرى بالجمال محجبا » .

ولقد ذكرنا الحديث عن الحجاب بالمرأة وقضيتها فماذا كان
رأي (إقبال) إزاء هذه المشكلة المستعصية ؟ .



«إقبال» والمرأة

إنما المرأة لون في رسوم الكائنات
لحنا ينفث نار الوجد في صدر الحياة
ذلك الطين تعالى فوق أوج النيرات
ما (أفلاطون) تروي من قضايا معضلات
وهو منها كشرار من ذكى الجمرات

أجل ان المرأة مخلوق بشري له احترامه وتقديسه وليست
حيواناً حقيراً كما زعم البراهمة - أجداد (إقبال) - من قبل ،
هي كاللون الوسيم الجميل في اللوحة الفنية الرائعة وهي مصدر
الجمال والحب والرحمة وآية العطف والحنان والنبيل ، وهي أنفاس
الربيع الحلوة وأنشودة الحسن العذبة ، وهي مصدر الوجود ،
وأم الفلاسفة والحكماء ، ولو أنها لم تتفلسف ، هي المدرسة الأولى
للعقل الوليد ، والمعهد الأسنى للطفولة التي تحبو في فجر نشأتها

هي الديدبان اليقظ الحارس لأخطر ثغرة من ثغرات الحياة ،
وأعني بذلك النشء الجديد ، لذلك لا تقل أهمية عن الجندي الذي
يجمي الذمار لأنه ابنها ولا تقل خطورة عن الحاكم الجبار المتربع
على كرسي الامارة لانها هدهدته في مهده صغيراً ، ورعته غلاماً
وأوحت اليه بالحب والسعادة شاباً .. ولا ينقص من قدرها أنها
وزيرة في بيتها ، وغيرها وزير في دواوين الحكومة ، ولا يحط
من قيمتها أنها تضع التكتيكات وترسم المناهج لمعركة الحياة
لابنائها في محيط منزلها ، بينما الرجل يخوض الميادين ويبدل الدماء
ويقذف بالنار والدمار في ميادين أوسع .. إنها امرأة بطبيعتها
وخلقها واستعدادها الفطري !.

ولن تكون رجلاً أبداً إلا إذا مسخت نواميس الكون ،
وانتكست سنة الطبيعة ، وبرزت عضلاتها .. واكفهرت ملامحها
واخشوشن جلدها وتصلبت نظراتها ، وغاض ينبوع الغذاء
والحنان في صدرها ، فأى حرية يطالبون بها للنساء ؟.

إذا كانت حريتها في أن تفك عنها أغلالها المكونة من عقود
اللؤلؤ فتعسا لها من حرية تجردها من حريتها وتشوه من جمالها .
وإذا كانت حريتها في أن تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء فهذا شيء
لا يماري فيه أحد ما دامت حافظة لحدودها ، مبقية على كرامتها
وعفتها ، فائمة لرسالتها الحيوية وواجبها نحو أشبال الغد ..
والسفور .. ماذا يقول عنه (إقبال) هو الآخر ؟.

إذا كان السفور رونقاً وجمالاً يشبع العين النهمة ، ويرضي النفوس الجائعة ، فهو ولا شك مطية للزلل ، ووسيلة للانحراف واندفاع في سبيل الغواية والضلال ، إنه على حد تعبير (إقبال) « السفور نور في العين لكنه ظلمة في الصدور » .. ويقول :

إن تجز متعة العين مداها كان فيها الشتات في التفكير

وإن (إقبالاً) لينمى على هؤلاء المتشبهين بالغرب وأولئك الذين يؤمنون بتقليده في كل شيء ، فيستجيبون لدعوة السفور ، ولو أنهم نظروا الى الاحصائيات التي قاموا بها عن مدى التدهور الخلقى والانحطاط المعنوي والضياع العائلي ، لو أنهم ألقوا نظرة واحدة على هذه الاحصائيات وقارنوها بغيرها ممن لا يعترفون بالسفور ، وحكوا المنطق السليم وحده ، لخرجوا بالنتيجة الحتمية ، وهي أن السفور بوضعه الراهن وأخطاره الحالية لعنة أي لعنة وبلاء مقيم ، والحجاب المقوت حقاً هو ذلك الذي يغلف الذات ، ويحبسها وراء أقنعة من الضعف والأوهام ، ويحيطها بسياج من الجمود والضييق والعبث ، فحجاب (الذات) شر لا يدانيه شر ، لأنها تكون آنذاك مقبورة مضیعة .

عشرة الافرنج نهج مفسد جهل المحقى طباع المحصنات

إن الغرب يزعم أن السفور والتحرر والانطلاق للمرأة حصانة لها من الكبت ، وعاصم لها من الزلل ، ومنقذ لها من

الحرمان الذي يدفع بالنفس الى ارتكاب الآثام والبحث عنها في خفية من الأعين .. لكن (إقبالاً) يرى أن الحصانة الحقيقية في يدي رجل قوي قادر مؤمن واعٍ ، فلن يجدي الحجاب إزاء رجل منحلّ ضعيف ، ولن ينفع العلم إذا كان الزوج مستهتراً منهاوناً .

حفظ الانوثة في يدي رجل لا العلم يحفظها ولا الحجب

ولا يعني (إقبالاً) بذلك أن تستعبد المرأة وتحتقر ، ويكون الرجل لها بمثابة سجان جاف الطباع غليظ القلب ، كلا .. فالعلاقة بينها تقوم على أساس المحبة والاحترام المتبادل والثقة والتآزر ، على أن تحفظ المرأة قدسية بيتها ، وكرامة زوجها ، وعفة نفسها ، ولا تتمرد على الصفة التي هيأتها لها الطبيعة .

وقضية تعليم المرأة كانت من المشاكل التي واجهت (إقبالاً) . إن (إقبالاً) لن يتناول كل علم وفن بالتفصيل ، وبين مدى ملاءمة كل شيء لها ، فهو مؤمن بأن للعلم نور وبعث وانطلاق الى الأمام في سبيل الوصول الى الذات الكاملة المؤمنة ، لكن أي علم يقصده (إقبالاً) ؟ .. فإذا كان التعليم سيخرج بها عن دائرة الأمومة ، ويشذّبها عن استمدادها الفطري ورسالتها المقدسة ، فهو عين الجهل والحماسة ، لأنه علم ينتزع من قلبها المشاعر الخالدة والمواطف النظيفة السماوية والإحساسات النبيلة التي تعتر بها الإنسانية كثرات رائع أبدي ، ولأنه تعليم لا يفرس فيها مبادئ

الدين السامية ، وبذور الخلق القويم ، ولا يبين لها الحدود
المرعية التي تقف عندها ، وعندئذ قل على الحب وعلى الحق
والخير العفاء :

موت الأمومة إن رامت حضارتهم
فالموت عاقبة الانسان في الغرب
ان يجعل المرأة التعليم لا امرأة
فالمعلم موت يراه صاحب القلب
ان تحرم من الفتاة الدين مدرسة
فالمعلم والفن موت العشق والحب

و (إقبال) حينما يثبت هذه الحقائق التي لا جدال فيها
ولا مرء ، يعترف بأن المرأة قد تحملت تبعة قاسية ، وحملًا
ثقيلًا ، لكن ما الحيلة في ذلك ؟ .. هكذا أرادت لها الطبيعة
هذا الوضع ، وهكذا رسمت لها الفطرة ذلك المنهاج الذي اختاره
الله لها ، فلا حيلة لنا في ذلك .. وأي تمرد وثورة على الفطرة
عبث لا طائل تحته :

كذلك في فؤادي للنساء أسي لكنها عقدة أعيت على الحيل

تلك عجالة سريعة عن رأي (إقبال) في موضوع المرأة .



التزعم الإنسانية والعالمية في شعر إقبال

«... يا ضياء الإنسانية والإخاء ، طارد بقوتك ظلام
البغضاء حتى تزول عن أنفسنا الشكوك والوساوس ، عسى أن
تشاهد الأمم مرة أخرى وجه السعادة التي اختفت خلف مطامع
المتحاربين .»

هذا بعض ما قاله (إقبال) ، حينما كان يحلم بعالم تسوده
المحبة والإخاء وتتحطم فيه - كما أسلفنا - حواجز الدم واللون
والجنس ، وتندثر أحقاد الطبقات التي لا تقوم إلا على مشاعر
البغض والتناحر والاستبداد .. لقد كان يهفو الى عالم نظيف ،
قد هجمت فيه الحروب ، واستكانت المطامع الجمراء ، ونامت
الأهواء الكافرة .

ونظر (إقبال) بعين الحقيقة والواقع الى العالم الحديث ،

فبدت له أمراضه واضحة كالشمس ، فكان أول ما راود ذهنه أن ينقذ السقيم مما دهاه ، لذا وضع فلسفته الخالدة ، التي ارتأها لأنها وقود الخلاص ، وروح البعث الانساني ، وحادي القافلة العالمية الى طريق السعادة والهدى .

وقد التزم في فلسفته جادة الاسلام ، واتخذها سبيلا الى الحرية بعد أن درس وبحت وفكر وعاش في خضم الحضارات المختلفة والمدنيات المتعاقبة بقلبه وفكره ، فتيقن أنه لا خلاص للعالم إلا بدواء الاسلام - بروحانيته وماديته - كما رأى (برنارد شو) ، و (تولستوي) وغيرهما من فلاسفة الغرب مثل هذا الرأي .

ولم يشغل تفكير (إقبال) قضايا العالم الاسلامي والعالم العربي فحسب ، بل تناول كل ما يشغل أذهان العالم من مشاكل ، فتحدث عن عصبة الأمم ، وعن هؤلاء الذين يمشون بقداستها وقوانينها ويسخرونها لأهوائهم ، حتى أنه كان من أول المتنبئين لها بالتمزق والفسل ، لبعد نظره السياسي ، وناقش نظريات الحكم المختلفة ، وواجه (موسوليني) برأيه في قوة وحزم ، ويسط له تبلبل الأفكار في الأمة الايطالية ، ومغزى الحكم الدكتاتوري ، وتنبأ أيضاً بانهايار إيطاليا السياسي عن قريب ، وقد حدث ما توقعه إبان الحرب العالمية الثانية .

وناقش (إقبال) قضايا الاشتراكية ، واعتقادات الشيوعية ، وفلسفتها ، وضرب بسهم وافر في شرح المذاهب العالمية وماهيتها ، شأن العالم المتبصر الخبير .

وكثيراً ما ترى في شعره صورة لصراع الحبشة من أجل التحرير ، وثورات الشام وهي تناوى الاستعمار ، وتمرد الهند وهي تدافع الغزاة ، وتحذيره من اليهود وهم يجيكون الألاعيب والمؤامرات ، وخطط سماسرة السياسة ، ومستغلي الشعوب الذين يبيعون أنفسهم وضمائرهم للشيطان .

لقد كان نصيراً لقضايا الحرية في كل مكان في الشرق والغرب ، وكان غيوراً على الأخلاق نائراً على ضياعها ، عند الغربيين المنحلين المارقين أو الشرقيين الجامدين الخانعين .

وكم كان حزين إقبال أليماً ، حينما طلقت تركيا إسلامها ، وقضى (كمال أتاتورك) على الخلافة الإسلامية وعلى صلة تركيا بالعرب ، وقذف بنفسه في أحضان الغرب بلا تحفظ ، ولكم نعى على (رضا بهلوي) في إيران سياسته المتعجرفة التي تؤمن بكل ما يأتي به الغرب ، وكان (إقبال) يظن أن أمثال هذه الحركات في (تركيا) و (إيران) وغيرها ليست إلا خبط عشواء ، والتباس أفكار ومركب نقص ، وإيماناً مطلقاً بروعة المدنية الحديثة على علاقتها ، وكان يعتقد أن حركة البعث الحقيقية هي يوم أن يهب المسلمون من غفلتهم ، وينشروا نور مبادئهم وحضارتهم العريقة ويجوبوا ميادين العلم والكفاح في همة ونشاط .

و (إقبال) يرى أن حكم الشعوب يجب أن تسيره الفئة الفاهمة الواعية والتي لها من نضوجها وإيمانها عاصم من الزلل

والميل ، لهذا فهو يأخذ على النظام (الجماهيري) أنه لا يزن الرجال الوزن الحقيقي ، بل يعتمد على العدد لا القيم الشخصية ، وبمعنى آخر قوامه (الكم) لا (الكيف) ، وإقبال بهذا يرى أنه من الأوفق والأرجح أن يكون للفئات ذات الكفاءة المرموقة كلمتها ورأيها ، كما كان في صدر الاسلام بالنسبة لأهل (الحل والمعقد) ، لذا يقول (إقبال) :

نظام الجماهير حكم به تعد العباد ولا توزن

ومع ذلك فـ (إقبال) يحترم رأي الأغلبية ، ويسير على رأي الجماعة لأنه صاحب نظرة ديمقراطية سليمة ، وفي نفس الوقت صاحب وجهة نظر طيبة ترفع من قيمة الانسان وتقدر كفاءته ومواهبه الشخصية .

و (إقبال) لا يفتأ يردد الشكوى من طغاة العالم الذين يذيقون الشعوب الضعيفة الويلات ، ويبكي من أجل السلام الضائع والقوة الفاشمة التي لا قلب لها ولا ضمير .

كم أصاب الانسان في هذه الا رض من اسكندر ومن جنكيز ويقول التاريخ في كل عصر خطر فرط قوة لعزيز وهي سم بغير دين ، وبالذبح في دواء لكل سم نجيز

وهكذا ظل (إقبال) طول حياته يحارب السياسة اللادينية في (روسيا) و (تركيا) و (اوروبا) وفي أي مكان ، لأن

(الميكافيلية) ليست كما يرى من الاسلام ، ويعتقد أيضاً أن
السياسة اللادينية ستورد الانسان موارد التهلكة والدمار ،
وتسلبه أسمى ما يعتز به من مشاعر وتقاليد وعقائد .

ما الحق مخف عن فؤاد سره
فلقد حباني الله قلباً مبصراً
فسياسة اللادين عندي خسة
مات الضمير بها وإبليس افترى
لما قلى حكم الفرنج كنيسة
ساسوا كشيطان بلا قيد جرى
شرهت لأموال العباد كنيسة
فإذا الخميس سفيرها بين الوري

فلاستعمار أنى حط رحاله ، وحيثما ألقى بمصاه ، يأخذ
أكثر مما يعطي ويهدم أكثر مما يبني ، ويفسد أكثر مما يصلح ،
لأنه يأبى إلا أن يظل محتفظاً بصولجانه ، متمتفاً بسلطانه ،
حائزاً على أسباب الثراء والنفوذ ! .

لقد كان (إقبال) ينشد البعث لأمم الأرض قاطبة ، ولا
يرجوه للمسلمين فحسب ، فحال أوربا في نظره لا ترضي ، وخطتها
منحرفة ، وكذلك حال الشرق لا تسر .

علة الشرق ذلة واقتداء ونظام الجمهور في الغرب داء
مرض القلب والبصيرة فاش . ما بشرق ولا بغرب شفاء

فكان لا مناص من أن تتسع رقعة فلسفته فتشمل القاصي والداني ، وتتناسى الألوان والأجناس وعناصر التفرقة ، فكلمهم في نظره يحتاج الى رعاية وعلاج وصحوة ، سواء في ذلك الغاصب والمغصوب ، وإزاء ذلك كان لا يفتأ يصرخ بنزعة الانسانية العامة التي لا تعرف التعصب ، فلا هو هندي ولا عربي ولا شرقي ولا غربي ، إنه إنسان وكفى ، وبشر يؤمن (بذاته) وإنسانيته ، فقد علمته فلسفته الذاتية أن يخلق فوق مستوى الأهواء والتفرقات :

الى عصابات العرب ما أنا منتم ولست هندي ولا أنا أعجمي
فقد علمتني (الذات) تخليق نافر يمر على الدارين غير محوم
فدينك تعداد لأنفاس محجم وديني إحراق لأنفاس مقدم

ومع إحساس (إقبال) بهذه النزعة العالمية ، إلا أنه يرى أنه هندي أعجمي بحكم المولد والنشأة ، فيقول : وماذا في ذلك ؟ إذا كنت هندياً في أنفاسي ، فأني (عدناني) الصوت مسلم حنيفي ، وإذا كانت كاسي من صنع الأعماجم ، فإن خمرتها حجازية المنبع ، وأفكاري مستمدة من النبي العربي ، وهل الاسلام إلا دين الله في الارض ووصيته الأخيرة الى الناس عامة ، وقد انضوى تحت لوائه الطوراني والساماني ، والشرقي والغربي :

أنا أعجمي الدن لكن خمرتي صنع الحجاز وكرمها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

ولقد توارد في شعر (إقبال) أسماء الأعلام من أئمة الفكر والحرب والدين والسياسة في شتى العصور والبقاع ، فكان شعره موسوعة لهؤلاء جميعاً ... تحدث عن (محمد) ﷺ و (عيسى) و (جنكيز) و (الاسكندر) و (نيتشه) و (أفلاطون) ، وتعرض لـ (موسوليني) و (ابن الرومي) و (ابن سينا) ، وأحصى رأسه إعجاباً بـ (علي) و (عمر) و (أبي ذر) ، وتحدث عن الفلاسفة والصوفية والملحدن والمؤمنين ... كل ذلك لأنه كان إنساناً يعيش بكل ذرة من كيانه ، فشعر (إقبال) سجل حافل للأحداث التاريخية والسياسية العالمية، وسفر جليل لماضي الاسلام وحاضره .

(إقبال) و (أبو العلاء المعري) :

يقولون أن (أبا العلاء المعري) وإقبالاً أعظم شاعرين في الإسلام ، والحقيقة أنه لكي نوازن بين الشاعرين نجد كثيراً من العقبات التي تعترض طريقنا ، فقد سبق (أبو العلاء) (إقبالاً) بما يقرب من ألف سنة إلا قليلاً ، فظروف العصر والبيئة تختلف اختلافاً بيناً .

هذا مع أن (أبا العلاء) كان يكتب شعره بالعربية في حين أن الأوردية والفارسية هما اللغتان اللتان كتب بها شاعر الباكستان أشعاره ، ومما هو جدير بالذكر أن الشعر عندما يترجم من لغة لأخرى يفقد كثيراً من مزاياه البلاغية والبيانية ، ولا

يحتفظ في الغالب إلا بالمعنى المجرد والفكرة الغالبة ، وهذه أيضاً قد يتناولها كثير من التحريف أو قليل ! .

غير أننا نستطيع أن نستلخص أن لكل منها فلسفة خاصة ينظر بها إلى الحياة وما بعد الحياة .. إلى الناس ومعتقداتهم وأخلاقهم ، ولقد استطاع شاعر المعرة أن يحظى بقسط وافر جداً من العلوم المختلفة والفنون التي شغلت أفكار عصره ، فلقد قرأ فلسفة الاغريق ، ونظريات الرومان وأكب على ما ترجم من الحضارات الفارسية والهندية وغيرها ، حتى انك تقرأ في شعره كثيراً من النظريات العلمية ، في مجال الاستشهاد والتشبيات كالطب والفلك والقضايا الفلسفية والرياضيات والطبيعات فضلاً عن أنه جوب الآفاق ، وأكثر الأسفار وتلقى العلم على يد كثير من العلماء الاجلاء في شتى عواصم العالم الإسلامي ! .

وبالإختصار استطاع (أبو العلاء) - رغم أنه ضريب - أن يحصل على أقصى ما يستطيع الحصول عليه في زمانه ، ولقد كان (إقبال) هو الآخر عالماً رحالة ، استوعب كثيراً من فلسفة الشرق والغرب قديماً وحديثاً ، وألم بالقانون والشريعة الفراء .

ولعل هذه إحدى النقاط التي تشابه فيها شاعرانا العظيمان ، ولقد كان (أبو العلاء) مضرب المثل في الآباء والانفة فلم يتزلف للأمير ولم يمدح عظيماً من العظماء رياء ومداراة ، ولم يحمل شعره مطية مسخرة لنيل المطامع الدنيوية الحقيرة ، وقربه إلى ذوي

الجاه والسلطان بل كسر في نفسه شهوة التطلع إلى ما ليس معه
- باستثناء العلم وحده - وحدة التشوق إلى المظاهر الخلابنة
البراقة ، وما ظنك برجل أقام لنفسه سجناً وحرّم عليها لقاء
الناس والإختلاط بأسواق الدنيا ومجتمعاتها ، إنه لا شك عظيم
السيطرة على أهوائه ومطامعه .

ولقد كان (إقبال) هو الآخر - رحمه الله عزيز النفس حر
التفكير عالي الهمة نبأ بشخصه بعيداً عن مواطن الشبهات
والاسفاف ، وعاش طليقاً متحرراً إلا من رسالته وعقيدته ،
بل طلق المناصب الحكومية كلية ، ونصب نفسه حارساً لحرمة
الحق ، مدافعاً عن كيان الأمة ، نافخاً في بوق البعث الأكبر .

ولعل سمة العزوف عن مطامع الدنيا والفرار من التزلف والتكسب
بالشعر صفة مشتركة ثانية لكلا الشاعرين الكبيرين .. لكن
شتان بين هذا وذاك .

ان (المعري) عزف عن الدنيا كرهاً لها وتحقيراً لشأنها ،
ومقتاً لأهلها اللؤماء والأوغاد الأقدار كما يقول . فهي دنيا مليئة
بالعذر والحيانة . والخير (اسطورة) لا وجود لها ، والحب
بدعة لا تجوز إلا في عقول المجانين والمخدوعين ، والقناعة والرضا
وهم باطل ، بل هما مجرد اسم لأن الناس جميعاً ليسوا إلا طامعين
جائعين ، لا يُشبع لهم نهم ، ولا يُروى لهم ظمأ ، انهم كالوحوش
الضارية .. أجل كالوحوش الضارية ، لأنهم يسفكون دماء

بعضهم ، ويدوسون الحقوق ، ويسخرون من العدالة ، ولا منطق لديهم إلا القهر والإرغام ، بل ان الوحش الضاري لا يفترس إلا إذا جاع فقط ، أما هؤلاء الناس فكلما ازدادوا شبعاً ورياً اشتعلت فيهم الرغبة الى المزيد واشتاقوا الى النهب والسلب والفساد ، حتى الوعاظ والعلماء فئة مارقة في نظر (أبي العلاء) ليست تراعي إلا ولا ذمة ، وتتجر بالدين ، وتتكسب بالشرائع ، وتشكلها حسب هواها كيا توائم مصلحتها ومنفعتها . فالواعظ أو الناصح في قوله :

يحرّم فيكم الصبياء صبيحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء

والحكام أيضاً ليسوا إلا اخوان غود ، وعباد كأس ،
وجلاّس الغيد الحسان ، ورؤساء عصابات يختلسون أقوات
الشعب وهزؤون بحرياتهم ومقدسات حياتهم .

هذه هي الحياة كما بدت (لأبي العلاء) بناسها وعلمائها
ووعاظها وحكامها ، ومثلها العليا من خير وحب وعدالة وحق ،
لقد آمن (أبو العلاء) بذلك فزهّد في الدنيا ، وتركها غير آسف
عليها لأنها دار هوان وشقاء وبلاء لا يريم .

و (إقبال) يرى الدنيا طيبة مرضية ، وأنها لم تخلق عبثاً ،
ولم تترك سدى ، وأن الناس كلهم ليسوا ملائكة ، كما أنهم ليسوا

جميعاً بالشياطين والأبالسة .. انهم بشر رُكبت فيهم روحانية السماء النورانية ، ومادية الارض النارية . وهاتان القوتان ككفتي ميزان قد ترجح احدهما الاخرى فإذا ما دار الزمن دورته ، أو طرأت ظروف ومؤثرات فقد تنعكس الآية فتشيل احدي الكفتين وترجع الثانية فليس جميع الناس أوغاداً أشراراً لثاماً ، فالشر يجانب الخير منذ أن خلق الله النور والظلام وأنشأ (آدم) وصور (إبليس) ، وإت من خلق نمروذ ونيرون وغيرهما هو نفسه سبحانه الذي أهدى الينا محمداً (ص) و (عيسى) و (موسى) و (أبا بكر) و (ابن الخطاب) .

ولا شك أن الشوائب والأسقام التي تعتري كيان البشرية مثلها كمثل الأمراض التي تكن في جسد الانسان ، وكلاماً يحتاج الى علاج ومواساة فاذا كانت الأمراض العضوية تعالج بالبترا أو بالعقاقير أو بالمباضع ، فإن أدواء البشرية من شر ونفاق وظلم لها هي الاخرى وسائل للإشفاء .. كانت نظرة إقبال إلى الدنيا إذن نظرة واقعية آملّة واعية وأن الانسان نفسه يستطيع أن يخلق من الألم سعادة ، ومن الحرمان لذة ، ومن الكفاح والنضال متعة ، ومن الأزمان والنكبات عبرة ودروساً وحافزاً للوثوب ، وأن يصبر ويصابر ويثابر ، وأن يتوكل ولا يتواكل ، وأن ينمي ذاته ويربها التربية الكاملة التي تصل بها الى مرتبة خلافة الله في الارض ، فيحقق الحق ويزهق الباطل ، ويدفع الناس دائماً من حسن الى أحسن في طريق الإيمان والإرادة

القوية .. وإلا فما جدوى السخوط على الدنيا وعلى الناس والتنكر لكل ما هو جميل مستحسن بينهم ، واعتبارهم مجموعة من الذئاب الجنونة ؟ .. هذا ما فهمه (إقبال) عن الحياة والكائنات ، فبنى على أساسه فلسفته ، ولقد ارتأى (أبو العلاء) عكس ذلك فيما يبدو ، فكان لفلسفته طريق غير طريق (إقبال) .

ومع هذا فقد كان لأبي العلاء الفضل الأكبر في نقد كثير من الأوضاع الفاسدة ، والكشف عن كثير من طبائع النفوس وخبائها ، والنوص وراء مكنون الضمائر وخبائها ، والضرب في آفاق مليئة بالصور والمتع الذهنية .

ولقد ترك تراثاً أدبياً جباراً يعتبر ذخيرة قيّمة في أدبنا العربي خاصة والأدب العالمي عامة ، ولعل رسالة الغفران التي كتبها حازت من الشهرة والاهتمام والتقدير شيئاً كثيراً ، فضلاً عن أنه كان رائداً من رواد الحرية الكبار في عالم الفكر والفلسفة ! .

ورغم هذا ، فقد كان يائساً من الدنيا ومن فيها لعنادهم وصلفهم .. أما (إقبال) فقد أسهبنا آنفاً في وصف شعره الذي يؤمن بالتححرر ويعيش على الأمل ويحوب في معالم النفس البشرية وطواياها كما كان يفعل أبو العلاء ، ولا ييأس أو يهرب أو ينزوي في محبس من صنعه بل ينقذف في معمعان المعركة الناشئة ، معركة الحياة التي يؤمن بأنها قنطرة الى عالم زاهر جميل ، عالم الخلود الأبدي .

وكان فيلسوفنا (أبو العلاء) شاكاً متردداً ، متمرداً على
القضاء والقدر ، ويعتقد أنه مظلوم مغبون ، طريد الأقدار ،
ولطالما تساءل : كيف ألام وأعاقب وقد أتوا بي الى الدنيا دون
أن أستشار ، ودرجت فيها رغم أنفي ، وأنا عاجز الإرادة ،
ضعيف القدرة ، يكبلني القضاء المكتوب ، وتسيرني قوى خفية
بعضها كامن في أعماق روحي ومناحي جسدي ، وبعضها الآخر
لا أدري له كنهها ، ولا أعلم له حقيقة ؟ .. ثم ماذا كنت قبل أن
أولد ؟ ولماذا خلقت ؟ وما مصيري بعد الموت ، أهو نومة أبدية
لا صحوة فيها ، أم تراها حياة اخرى جميلة خالية من المتاعب
والأهوال التي تجرعت كؤوسها في دنياي ؟ .. وهل هناك بعث
أو نشور ، أم هو الفناء الذي لا حياة بعده ؟ .. إني حائر ..
تعييس .. شقي .. يا إلهي !.. إني ضحية .. ضحية الناس
والزمان والأقدار !.

وهكذا كان (أبو العلاء) حائراً شاكاً لا يدري له مصيراً ،
ومع هذا فقد كانت تطوف به أوقات من الهدوء ، ولحظات من
السكينة والتجلي والإيمان ، فيؤوب الى الله يسكب في حضرة
دموع التوبة والندم ، ويبتهل إليه في حرارة وشوق وروحانية
مشرقة ، لكنه كان يعود مرة أخرى إلى بلبلته وتشككه ،
ويصطلي بنار القلق والحيرة من جديد ، فيبعث الشكوى والأنين
في شعر لافح مر ، ويصب على نفسه ألوان اللوم والتقريع ويعود
إلى محبسه الاختياري يحفون مخضلة بالدمع ، وقلب مشرب بالأسى

ونفس ملتاعة بالأحزان غاصة بالأوهام والآلام . لهذا كان ممن أحسنوا التعبير عن قلقهم النفسي الموجه ولوعة أفئدتهم المكثومة الطمينة .

وإقبال يؤكد أن وراء حياتنا الفانية عالماً آخر خالداً ، فيه مسالعين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يعقل أن تكون الحياة عبثاً وسدى ، بل إنها وسيلة إلى عالم أفضل وقنطرة إلى الآخرة حيث السعادة التي لا تعترها شقوة والراحة التي لا ينغصها نصب ، والنعم الذي لا يشوبه ألم ، ولذا فهناك بعث ونشور يوم ينفخ في الصور ، وهناك جنة ونار ، وهناك أيضاً عقاب وثواب وحساب عادل . أما مسألة الجبر والاختيار ، والقضاء والقدر فقد أوضحها (إقبال) في شعره ، ايضاح الرجل المؤمن ، ذي الضمير المستريح ، والقلب المطمئن ، والروح الهادئة المستقرة . !

تلك لمحة قصيرة عن (إقبال) و (أبي العلاء المعري) ولا شك أن الامام بأوجه الاختلاف والاتفاق تفصيلاً تحتاج لفرصة أخرى ! .

وكل ما نستطيع أن نقوله في نهاية هذه اللوحة الحافظة اننا يجب أن ننصف (أبا العلاء) كفكر حر أثار الطريق أمام رواد العلم والبحث والثقافة ، وننصفه كإنسان تألم لآلام البشر وضحايا الحياة . فبلغ درجة لا يستهان بها في روعة تعبيره ، وننصفه

كأدمي عبقرى استطاع أن ينشر ما يعتل في نفسه من انفعالات كثيرة ، وننصفه كشاعر من كبار شعراء العربية بأسلوبه الجزل القوي وأخيلته السامية وتعليقاته الدقيقة ، وننصفه كناقد بارع لأوضاع المجتمع ونواقصه وعيوبه ، وننصفه كعالم فذ ، وفيلسوف نادر المثال ، وناظم لا يشق له غبار ! .

أما (إقبال) فإنصافه شيء من نافلة القول ، فله من كفاحه القوي ، وعقيدته السليمة وبيانه الفياض (وذاته) القوية المؤمنة ما لا يدع مجالاً لقول قائل .

القلندري :

في الهند كثير من المعائب ، هناك أقوام يتلذذون بالسير فوق المسامير والأشواك أو النوم فوقها وهم عراة الأجساد ، وفيها أقوام يقضون الأيام العديدة دون أن ينالوا شيئاً من الغذاء ! وفيها من يداعبون الثعابين القاتلة السامة ويراقصونها على أنغام الموسيقى ودقات الطبول ، وهناك من ينفردون بتقديم ألوان مدهشة من السحر وسط الأبحر المتصاعدة وألحان الناي التي تأخذ بمجامع القلوب ، ثم هناك من كانوا يزهدون في الدنيا قاطبة ، فينطلقون وهم مجردون من المال والمتاع بلا هدف ولا غاية امعاناً في إيلام أنفسهم وتنفيساً عن طاقات روحية هائلة مذكورة ، فالهند كما قلنا بلد الروحانيات المتزايدة والتصوف

القديم منذ فجر التاريخ، وبلد المذاهب الكثيرة والنحل المتباينة
فأصبحت دياناتها تعد بالآلاف ولغاتها كذلك .

وهناك في (الهند) مذهب يسمى مذهب (القلندرية) نسبة
إلى مؤسس هذا المذهب الذي اعتبره صاحبه لونا من ألوان
التصوف ، وكان السالكون لهذه الطريقة جواربين في الآفاق ،
ضاربين في شتى أنحاء الأرض ، ولا يرتبطون بوطن عاشوا تحت
سمائه . الأرض كلها مسرح ومراح لهم ، ينامون حيث ييقتهم
النوم ، يأكلون أينما تيسر لهم الطعام ، وينطلقون إذا أحسوا
برغبة في الانطلاق :

الحب والزهد زادي وكل أرض بلادي (١)
ومن ثراها وسادي ولا أدين وربي
لحاضر أو لبادي

ويعني الواحد منهم هكذا حليق الرأس واللحية تستره
الأسمال وينتعل الأوحال . وقد كتب عن القلندرية الامام
(السهوروردي) في كتابه (عوارف المعارف) في الباب التاسع
عند ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم فقال :

« ... فمن اولئك قوم يسمون أنفسهم (قلندرية) قارة ،

(١) من شعر المؤلف .

و (ملامتية) تارة اخرى ، ولقد ذكرنا حال الملامتي ، وأنه حال شريف ومقام عزيز ، وتمسك بالسنن والآثار وتحقق بالاخلاص والصدق وليس مما يزعم المفتونون بشيء ، فأما القلندرية هي إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم ، حتى خربوا العادات وطرحوا التقييد بأداب المجالسات والمحادثات ، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم ، فقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع ، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائق العزيمة ومع ذلك فهم متمسكون بترك الادخار وترك الجمع والاستكثار ، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين ، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك ، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب .. الى أن يقول :

« والقلندري لا يتقيد بهيئة ولا بيبالي بما يعرف من حاله وبما لا يعرف ، ولا ينعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس حاله » .

تلك كلمة قصيرة عن القلندرية من الوجهة التاريخية والفكرية لكن .. كيف نظر (إقبال) إلى (القلندرية) ؟ .

ولماذا سمى نفسه في كثير من مقطوعاته (بالقلندري) ؟ .

وهل كان (إقبال) يؤمن بهذا المذهب ؟ . وإذا كان كذلك

فلماذا لم ينتزع شعر رأسه ويرتد الأسمال وينطلق كالمسافر الضليل
لا يعلم له جهة ، ولا يعبأ بأهل ولا وطن .

والحقيقة أن (إقبالاً) كان أكبر من أن يقيد نفسه بمذهب
ضيق الحدود ، أو فكرة قصيرة النظر غير واضحة السمات ،
فكيف يترك (إقبال) الدنيا وما عليها ، وينفلت منها الى الزهد
الكامل أو التحرر الذي لا يحده حد ؟ وكيف يترك حشود
الجياع ، وجموع الضائعين المستعبدين في الهند وملايين الجهلاء
والمرضى والبلهلاء ..؟ ليكن (إقبال) (قلندراً) .. لكن أي
(قلندر) يكون .؟

لا يجحد (القلندري) راحة وان ثوى بقبره تحت الثرى

إذن (القلندري) الجديد الذي صورّه (إقبال) وأضفى
عليه من جميل الصفات ما جعله جديراً بالخذوة والإقتداء ، مثل
هذا (القلندري) هو المثل الأعلى لفلسفة (إقبال) ، هو المؤمن
الحق ؛ المؤمن المكافح الخالد ، ذو النفس القوية الخالدة رغم
الزمان والمكان والبقاء والفناء ، المؤمن الذي لا يجحد راحة في
دنياه ، ولا يركن إلى الهدوء والسكون في اخرائه لأنه حلقة متصلة
من الدأب والنضال والسمو والترقي إلى أوج الكمال .

وليس (القلندري) هو ذلك الذي يرتدي الأسمال ، ويحطم
التقاليد ويسخر من دنياه ولا يعبأ بدار أو وطن هائماً على وجهه .

ان (القلندري) الجديد انسان ثاقب الفكر ، نابض العزيمة ،
لا يستعبده مال ، ولا يستنذله منصب أو جاه ، ولا يسخره طاغ
بوعد أو وعيد .

والقلندري فرد (بذاته) المكتمة ، كل بكفاحه من أجل
الحق المجرد ، والأخذ بيد الأحياء الى دنيا أسمى وأروع ، انه
يملك الدنيا ويوجهها وجهة الخير لأنه من حديد وعزيمته وصلابته
وروحه من حديد ، لا لأنه يملك في يده حديداً فحسب ، ولكن
لأنه هو نفسه حديد ، فلا فائدة في حديد تحمله يد هشة ، ويقذفه
قلب مفزع وتحركه روح واهنة ، أو تطرقه ذات مبعثرة . قال
(موسوليني) (لإقبال) :

« إن من ملك الحديد ، فقد ملك كل شيء » فرد (إقبال)
عليه قائلاً : « إن من كان هو حديداً فهو كل شيء » .

وبهذا العزم سيطر (القلندري) الجديد الذي بعثه إقبال
من مرقدته وألبسه هذه الصفات الجديدة .. سيطر على الزمان ،
وخاض عبابه الصاخب . واستطاع (بتكبيره) وإيمانه أن يمحق
سحر الزمان فلا يستعبده ، فقي قصيدته (همة القلندر) يقول :

يقول للزمان ذلك الفتى امض إلى حيث يسير المؤمن
مالك في معتركي من طاقة حذار من قلندر لا يدعن
إذا طغى اليم فيها أقدمن ما حاجتي ملاحه والسفن

ويقول في مكان آخر - وهو يعني نفسه -- :

ليس يخفى على القلندر فكر ساور النشء ظاهراً وخفياً
أنا عندي بكل حالك خير فهذا الطريق سرت ملياً
ليس هم الغواص أصداف بحر يبتغي الغائصون درأً بهياً

فستان بين (قلندري) و (قلندري) .

فان أولهما قد اتسم قلبه بالطيبة ، ونذر نفسه لله ، فجری
وهام على وجه بلا هدف محدود ولا خطة مرسومة ، ولم يلتفت
للناس ، والثاني باع نفسه لله خالصة ، فاتخذ السبيل الحق ،
وهتف بالناس أن سيروا ورائي الى الله ، وأوضح وأبان ، وتركز
ودقق ، ولم يدع جهده مشتتاً موزعاً هباءً منثوراً .

فكان هذا (القلندري) الجديد هو قائد البعث ، وشعار
الذات الكاملة ، وهو الذي أذاع سر الوثبة المباركة ، وحرارة
الزحف والتحرر .

قال للرومي في الخلد سنائي لا يزال الشروق بالتقليد يؤسر^(١)
قال منصور: ولكن قد سمعنا أن سر الذات أفساه قلندر

ومن ألقى الصفات (بالقلندري) صفة هامة هي :

(١) الرومي وسنائي ومنصور : من كبار الصوفية .

الفقر :

ولقد أكثر (إقبال) من ذكر كلمة الفقر ، وعدّها صفة من أعظم الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الانسان المؤمن الفاضل ، ولم يقصد (إقبال) بالفقر ذلك المعنى الدارج المعروف وهو عدم المال أو قلته . ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام : « .. والذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيتها عاملة مقدّمة لا يطغىها وجدان ولا يذلها حرامان ، وربما يملك الفقير قناطر من الذهب ، وربما يكون ملكاً مسلطاً لا يعجز سلطانه مال أو متاع » . وليس هذا المعنى بعيداً عما فسّر به بعض الصوفية الفقر ، ففي رسالة القشيري : « سئل يحيى بن معاذ عن الفقر فقال : حقيقته ألا يستغنى إلا بالله » . وقال (الثعلبي) : « أوفى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يومه ما صدق في فقره » ... فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ، ولكن ألا يرتبط الانسان بما أدرك أو بما فات ، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده » اه .

وفي قصيدة فقر الصالحين يقول (إقبال) ما معناه :

« يا عبيد المال وعشاق الطين والمتاع ، ألا أخبركم عن الفقر الرفيع العظيم ؟ .. هو أن تستبين طريق العارفين ، وتروي

فؤادك الظامىء من ينبوع الإيمان واليقين.. مثل هذا الفقر عزيز
 النزعة ، رفيع الجنب ، غني عن الدنيا وما فيها ، أو قل هي
 طوع يمينه ، حتى لكأن الجوزاء بسموها ورحابتها لا تحتاج منه
 إلا الى خطوة يسيرة كي يطأها .. وإذا انطلقت أصداه صوته في
 العالمين ، أرعشت الكائنات وهزّت البقاع ، وما هذه العزمة
 الفتية ، والقوة الجبارة ، إلا لأنه يؤمن بأن هذا الكون ليس له
 إله إلا الله !.

إن الشوق يملأ كل ذرة في كيانه ، والرضى يسري بين حناياه ،
 وتذوق الخير والحب والجمال يغمر روحه ، وهو دائماً يسلم أمره
 لله ، ويرضى بما قسم له قناعة وزهداً لا عن عجز وضمف وكسل !
 فياله من فقر رائع حقاً ، ملاً الارض صفاء وثناء وأشاع فيها بهجة
 وسعادة ، ولا عجب في ذلك ، لأن هذا الفقر ميراث النبي الأعظم
 محمد ﷺ .. ان له في الظلمات الحالكة نوراً مسرجاً إلى المجد
 فإذا غلبت الدجنات على البسيطة انجابت عن عينيه الغشاوات ،
 وبدا الظلام ضياءً غامراً !.

وللفقر عزيمة تصنع المستحيل ، وتركب الصعب ، وتخلق من
 اليأس أملاً ، ومن الفشل نجاحاً ومن (الزجاج جواهر ثمينة) ،
 وربما استطاع بإيمانه أن يغير ناموس الفلك ، وأن يكون سناء
 الملائكة والتماعهم مستمداً منه !. ياله في مظهره من مسكين مرقع
 الثياب ، قانع بالقليل ومع ذلك فقلبه كبير يسع الدنيا بأسرها ؛
 إن فقرنا من نوع عجيب ، فهو صامت أو نادر الكلام ، خال من

البهرج والدعاية والمظاهر ، لكنه بهذا الصمت الحكيم يربي الأجيال ، ويشيد الأمم ، ويدفع بموكب الحياة قدماً إلى الأمام . ويستطرد (إقبال) قائلاً : إن صفة الفقر هي صفة المسلم الحق المتواضع ، ورغم أنه ساس دولته من فوق حصير ، فقد خشبه أولو التيجان والصولجانات :

فقرنا ليس برقص أو غناء ليس سكر النفس في موت الرجاء
فقرنا معناه تيسير الجهود فقرنا معناه تسخير الوجود
فقرنا المادي سراج لو ظهر يخجل الشمس ويزري بالقمر
إنه إيمان بدر وحنين إنه زلزال تكبير الحسين

صاح دعني أكرم المم الدين إن كاسي ليس يروي العابثين
فكنوز الدين قد طارت شعاعاً وراث المال قد أمسى ضياعاً

أيها الشادي بقرآن كريم وهو في ركن من البيت مقيم
قم وابلغ نوره للعالمين قم وأسمع البرايا أجمعين
إن تكن في مثل نيران الخليل أسمع النمرود توحيد الخليل

فالفقر ليس رصا بالدون وهو خنوع للمذلة ، ودردشة بلهاء ، وترك الجبل على الغارب للحاكمين المستبدين ، واحتجاج بالقضاء

والقدر على ما أصاب أمننا من ضعة وهوان، وصبر على الفاصبين،
وإنما هو عزيمة وإيمان وكفاح واصلاح، هو الغنى بعينه إن لم
يكن أسمى وأعز!.. « أيها المؤمن فلتتقدم! . ليس هذا منتهى
السفر » .

وفي ابريل عام ١٩١٨ م فاضت روح (إقبال) إلى بارئها
وهو أشد ما يكون فرحاً وطرباً للموت .

بعض المراجع التي رجعنا إليها في هذا البحث

- ١ - ديوان « ضرب الكليم » ... ترجمة « الدكتور عبد الوهاب عزام » .
- ٢ - مقالات الأستاذ « أبو النصر الهندي » في مجلة الرسالة عن « اقبال » عام ١٩٣٥ م .
- ٣ - ديوان « رسالة الشرق » ترجمة الدكتور « عبد الوهاب عزام » .
- ٤ - فلسفة « اقبال » والثقافة الاسلامية في « الباكستان » تأليف الأستاذ « الصاوي شعلان » والأستاذ « الأعظمي » .
- ٥ - مع « أبي العلاء » في سجنه - ل « طه حسين » .
- ٦ - محمد « اقبال » « سيرته وفلسفته وشعره » الدكتور عبد الوهاب عزام .
- ٧ - ديوان الأسرار والرموز ! .
- ٨ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - ل « أبو الحسن الندوي » .
- ٩ - تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند - ل « مسعود الندوي »

كتب للمؤلف

روايات

- ١ - الطريق الطويل
- ٢ - في الظلام
- ٣ - عذراء القرية
- ٤ - اليوم الموعود
- ٥ - رأس الشيطان
- ٦ - الربيع العاصف
- ٧ - النداء الخالد
- ٨ - الذين يحترقون
- ٩ - أرض الأنبياء
- ١٠ - طلائع الفجر
- ١١ - ليل الخطايا
- ١٢ - ليل العبيد
- ١٣ - ابتسامة في قلب شيطان
- ١٤ - الكأس الفارغة

١٥ - نور الله (جزءان)

١٦ - قاتل حمزة

١٧ - مواكب الأحرار

١٨ - الظل الأسود

١٩ - الرايات السوداء

مجموعات قصص قصيرة

٢٠ - موعظنا غداً

٢١ - دموع الأمير (رجال الله)

٢٢ - العالم الضيق

٢٣ - عند الرحيل

دراسات

٢٤ - اقبال الشاعر النائر

٢٥ - شوقي في ركب الخالدين

٢٦ - الاسلامية والمذاهب الأدبية

٢٧ - الطريق الى اتحاد إسلامي

٢٨ - المجتمع المريض

٢٩ - أعداء الاسلامية

شعر

٣٠ - أغاني الغرباء

٣١ - عصر الشهداء

٣٢ - كيف ألتاك

مسرحيات

٣٣ - على أسوار دمشق